مكتبة الأسرة 1997 ١٩٩٧

مهرجان القراءة للجميع

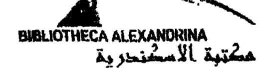
الأعمال الإبداعية

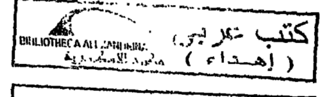
ابراهيم عبد المجيد

الشجرة والعصافير









الشجرة والعصافير

الشجرة والعصافير

إبراهيم عبد المجيد



مهرجان القراءة للجميع ٩٧

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الأبداعية)

الشجرة والعصافير

إبراهيم عبد المجيد

لوحة الغلاف :
للفنان: جمال قطب

تصميم الغلاف
الإشراف الفني:
للفنان محمود الهندى

المشرف العام
د. سـمير سـرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الإدارة المحلية
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: الهيئة المصرية العامة للكتاب



مقدمة

وهكذا تمضى مسيرة مكتبة الأسرة لتقدم فى عامها الرابع تسع سلاسل جديدة تضم روائع الفكر والإبداع من عيون كتب الآداب والفنون والفكر فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية، تروى تعطش الجماهير للثقافة الجادة والرفيعة، وتنضم إلى مجموعة العناوين التى صدرت خلال الأعوام الثلاثة الماضية لتغطى مساحة عريضة من بحور المعرفة الإنسانية، ولتقطع بأن مصر غنية بتراثها الأدبى والفكرى والإبداعى والعلمى، وأن مصر على مر التاريخ هى بلاد الحكمة والمعرفة والفن والحضارة .. عبقرية فى المكان وعبقرية الإبداع فى كل زمان.

سوزان مبارك

على سبيل التقديم...

مكتبة الأسرة ٩٧ رسالة إلى شباب مصر الواعد تقدم صفحات متألقة من متعة الإبداع ونور المعرفة مصدر القوة فى عالم اليوم..

صفحات تكشف عن ماضينا العريق وحاضرنا الواعد وتستشرف مستقبلنا المشرق.

د. سمير سرحان

الشجرة والعصافير

(١)

لايزال اليــوم الأول فى عينى «سالم» • الشمس تحتوى السماء • الفضاء الواســع ضيقه الجفــاف • الأرض أجدبها الحسك • والملاحظ قال له أن لايتحرك من هنا • فعليه تزويد القطارات بالمياه من «الغراب» •

لم يعرف ، ولايزال ، لمــاذا أسموا هــذا الجهــاز بالغراب • ماسورة واسعة ترتفع عمودية لثلاثة أمتار فوق خزان تحت الأرض ، تنحنى عند النهاية لمسافة متر لتتصل بخرطوم من المشمع يتدلى طــويلا الى أســفل • يأتى القطار يقف بجوار «الغراب» فيدخل «العطشجى» طرف الخرطوم فى خزان ميــاهه ، بينما يفتح ســالم الصمام المركب فوق الماسورة لتندفع المياه من الخزان الأرضى • لكن القطـــارات كانت لاتــزيد عن اثنين وثلاثة فى كل يوم • لايتكرر حضورها أبدا ، ولايتكرر حضور أى سائق أو عطشجى أتى من قبل • حتى قطار المياه الأسبوعى والذى ينقل المياه الى الخزان الأرضى ،

كان يأتى دائما مختلفا وبسائق وعطشجى مختلفين ·
وتحت السقيفة الهزيلة المكونة من ثلاثة ألواح من
الخشب يتساءل سالم ويفكر لماذا لايبادله «حسان»
الحديث ؟ انهما ينتصفان اليوم ، يعمل كل منهما نهارا
أو ليلا شهرا ثم يتبادلان ذلك · لكن حسان متجهم لايلقى
أو يرد تحية فى الصباح أو المساء ·

أدرك سالم أن الأيام ستمضى لا معنى لها فغرس
شجرة · كبرت فرأى معنى السنين · لكن ظل كل شىء
حوله كما هو · الحسك لايرتفع أو يختفى · الغراب
يركبه الصدأ ولايتزعزع · طريقا القطارات على
جانبى الغراب يمتدان ساكنين الى الأفقين · السور
البعيد الذى يفصل المنطقة عن المدينة لايتهدم ·
الملاحظ اختفى ولا أحد يأتى ليتابع العمل · وسالم
يعرف أن الدنيا أوسع مما حوله · ان القطارات لابد
تذهب الى القرى والمدن البعيدة · ان عمله هام فالقطارات
بلا ماء تحترق · وكان مايدهشه حقا هو آن الشجرة
التى صارت وريفة لم تجلب العصافير · الفضاء حوله
واسع ، وربما لايوجد عصفور يستطيع الطيران هذه
المسافة كلها ، لكن مامعنى شجرة بلا عصافير أو
أعشاش ؟ ·

وفى صباح خريفى وجد الشجرة مقطوعة من أسفل جذعها وساقطة فوق الأرض ، وقد تهشمت ، والتوت معظم أغصانها • انحدر قلبه ليسقط بين القضبان ويدوسه قطار ثقيل • ولأنه لم يجد حسان فى انتظاره لم يشك فى أنه قد فعلها •

كانت الشجرة رغم أى شىء واحة خضراء فى فضاء بليد • زهت كثيرا فى عينيه حين كانت تسقط فوقها أشعة الشمس وندى الصباح • رطب ظلها لحمه وعظامه، وكم ساعدته على احتمال النظر الى «الغراب» الموحش • ولم يشأ أن يطول حزنه • غرس غصنا من أغصانها • أقام من أفرعها الباقية كوخا ليتخلص من السقيفة المضحكة ، وكان يوما عامرا بالعمل • أتت قطارات ، كثيرة سوداء تحمل معدات عسكرية ضخمة • حين سأل سائقا مترددا « ماذا جرى ؟ » ، أجابه بكلمة واحدة «الحرب» ، وأتى حسان فى المساء باسما •

ــ لماذا قطعت الشجرة ؟•

ــ لاأحب العصافير •

ــ لكن العصافير لم تأت •

هكذا قال سالم الذى سرعان مادهش لاجابة زميله ولنفسه أكثر •

ـ ومايدريك ؟ (قال حسـان بلا مبـالاة) أرال غرست شجرة جديدة ٠

قال سالم فى عزم وثبات :

ـ اذا قطعتها قطعتك ، وهذا الكوخ لاتدخله ٠

كان جسـان أقوى من سـالم وبارد الأعصـاب قال :

ـ حتى برغم السـنوات الخمس التى مضت على صداقتنا ٠

انصرف سالم فى ضيق ٠ كيف مضت سنوات خمس بسرعة هكذا ؟!

(٢)

فى غرفته الصغيرة فوق البيت المنخفض فكر سالم في أنه لم تقم علاقة بينه وبين أحـد من السكان وكان قد استيقظ منذ عام على ضجة هائلة ٠ رأى بلدوزرات وعربات وعمـالا يهـدمون البيوت ، وسـكان المنطقة يحملون متاعهم ، ويركبون مركبات اصطفت فى طابور طويل ٠ عـرف أنه سيتم نقلهم الى الطرف الآخـر من

المدينة . وأنه سيقام محل البيوت القديمة مصنع كبير للغزل . لكن أحدا لم يهدم البيت الذى يسكن فوقه . ظل وحيدا وسط الأطلال التى سرعان ماختفت . اشتراها تجار بالنهار وسرقها لصوص بالليل . ولأن العمل يجرى بالمصنع فلم ينقطع الضجيج بالليل والنهار . واستيقظ مرة أخرى فوجد المصنع قد أحيط بسور عال جعل البيت خلفه . لم يعد ممكنا للسكان ، ولا له ، أن يروا غير السور . لم يعد ممكنا أن يراهم أحد . ومنذ أيام فكر سالم أن يهجر العمل الذى يسرق الشهور والأيام ، لكنه لاحظ فى عودته أن حجرات البيت صارت مغلقة بأقفال غليظة . والليلة يفكر أن ينتقل ليعيش فى مكان آخر . قرر أن يعيش بجوار الشجرة والغراب والعصافير . لقد كبرت الشجرة الثانية ، وأقبلت العصافير الكثيرة تقف فوق الغراب . جلب سالم أخشابا، وجعل الكوخ أكثر اتساعا وقوة . لاحظ أن حسان يقيم كوخا أيضا . نقل أثاثه القليل الى الكوخ . فعل حسان مثله . قال سالم فى نفسه قد يؤدى هذا الى صداقة حقيقية . لم يقدم حسان أكثر من تحية فى الصباح والمساء . صار كل منهما يمضى نصف اليوم فى العمل ، والنصف الثانى داخل كوخه . قرر سالم أن يسقط

«حسان» من الحساب ، واذا قطع الشجرة يقطعه بالفعل كما هدده يوما • وانصرف للعصافير التى تأتى الآن كل يوم • انه يغرق لها الأرض بالمياه ، تشرب ، تتقافز ، تتقلب ، ترقص •

لكنهـا لا تقف فـوق الشـجرة • تقف فقط فوق الغـراب • اشترى لهـا حبوبا من المدينة نثرهـا فوق الأرض • تلتقطها وتصوصو وتزهو • جرب أن يروضها • يشير اليها أن تصعد الى الغراب فتصعد • تهبط واحدة اثر أخرى فتفعل • تنصرف واحدة فأخرى فتمتثل • يفتح لها كفيه فتقف عليهما متواترة وصار بعضها يقف فوق كتفيه ورأسه وفى المساء قبل أن يخرج حسان من كوخه تنصرف • لم يخش سـالم عليها من حسـان فهو ـ سالم ـ حين يعمل ليلا لا تجىء بالنهار • لكنها أيضا لم تكن تأتى الى سـالم بالليل • كـان يحلم بهـا وهو يقظ ، وأيضا فى النـوم • وحدثته كثيرا فقـالت ان « حسان » يمضى نصف الليل الأول يلملم ما تبقى من حبوب على الأرض ويأكله • يمضى نصف الليل الثانى يهز الشجرة لتسقط الأعشاش • وتضحك العصافير لأنه لاتوجد أعشاش بالشجرة • ويتعذب سالم لأنه فشل فى أن يجعلها تعشش فوق الشجرة أو تقف فوق أغصانها ، وتكبر

الشجرة فى عينيه حتى تملأ الفضاء الواسع ، ثم تعود تنكمش حتى تصبح عودا جافا هشا ، وصوت العصافير يدغدغه فيضحك ويتقلب فى الفراش • وكثيرا مافكر سالم أن أحدا من السائقين أو العطشجية لم يندهش له حين يراه يعمل والعصافير فوق كتفيه ورأسه • أدرك أن القطارات صارت قليلة جدا • ربما يمر الأسبوع ولا يأتى غير قطارين أو ثلاثة • وحين رأى قطارات خضراء كثيرة تمر دون ان تقف لتتزود بالمياه، ولاتنفث دخانا مثل القطارات السوداء ، قال فى نفسه انهم لابد يتخلون عنه • لكن الملاحظ ظهر قادما من بعيد فبدا طوق نجاه • كان يعرج فى مشيته • وحين اقترب رأى سالم وجهه متغضنا وشعر رأسه الأبيض لايخفيه « البيريه » الأسود •

ـ اخيرا عدت ياسيدى •

تلفت الملاحظ حوله •

ـ هل صرت تعيش هنا ؟ •

ـ أجل •

ـ ألا تذهب الى المدينة ؟

ـ تغيرت المدينة كثيرا ٠

لم يشعر سـالم أن ذلك يعنيه فى شىء ٠ كانت العصـافير تنتقل من كتف الى الأخرى ومن رأسـه الى أعلى الغراب ، ولا تبدو دهشة على وجه الملاحظ الذى استطرد مبتسما :

ـ هدم مصـنع الغزل وبيتك القديم ٠ أقيمت مكانهما عمارات وفنادق جديدة ٠

«لابد أن سنين كثيرة قد مرت حقا» ٠ هكذا فكر سالم بينما سأله الملاحظ :

ـ أين حسان ؟

ـ لعله نائم فى كوخه ٠

ـ أما يزال يقطع الأشجار ؟ ٠

« هذا الشيطان يعرف كل شىء » ٠

ـ لقد صار العمل قليلا ٠ أعرف ذلك ٠ القطارات الخضراء لا تعمل بالفحم ولا تحتـاج الى ماء كثير لكن لا تقلق ولا تبرح المكان حتى أعود اليك ٠

ـ متى ياسيدى ؟ ٠

قال سالم ذلك وهو يشعر بنفسه وقد صار صغيرا جدا ، وبأنه يسأل شيئا بعيدا بعيدا جدا لايراه ٠

ـ ربما بعد عشر سنوات أخرى أو أكثر • ربما غدا • لاتقلق •

ومد الملاحظ يده فأمسك عصفورا من فوق كتف سالم اليمنى ليضعه على الكتف اليسرى وانصرف تاركا سالم وحده فى الفضاء • حين اختفى من المنطقه كانت العصافير قد صارت جميعها تقف فوق الغراب • نزلت احداها لتشرب فصرخ فيها سالم • ذعوت • فتح لها كفه فطارت اليها • قال فى ضيق :

ـ مضى وقت طويل أعلمكم فيه المحبه ؟

ـ • • •

ـ لماذا تنزلين دون اشارتى ؟

ـ • • •

ـ اشربى •

لكن العصفورة لم تشرب• طارت وخلفها العصافير• انتشرت فى الفضـاء فأحس سـالم أن للكون جانبين ظالمين يطبقان عليه • توقف القطار العجوز الأسود ، الذى ينفث الدخان الكثيف الأبيض ، ليتزود بالمياه •

« حين انتهت أول حرب اختفى كثير من السائقين والعطشجيه صغار السن • أخبره سائق عجوز أن كثيرا

منهم استدعوا الى الحرب وأنهم ماتوا فى الصحراء تحت القنابل ، أو تاهـوا فى الرمـال ، أو قتلهم البـدو ، وأخذوا سلاحهم والماء » ٠

كان القطار الأسـود يجر عرباته محملة بالعتـاد العسكرى الثقيل ٠ مرت بعده قطارات خضراء كثيره تحمل عتـادا عسـكريا ولاتقف ٠ كانت هناك حرب أخرى ٠

(٣)

حين رأى سـالم حسان واقفا والفأس بين يديه ، وشرر يطل من عينيه ، لاحظ اهتزاز ساقيه ٠ صـار حسان هرما ٠ قرر سالم أن يهاجمه ٠ لقد ظل معظم ليل أمس يسمع صوت ضربات قوية ظنها الريح تطير القضبان ٠ القطارات السوداء العجوز تضرب الخضراء الفتية ٠٠ وكعادته منذ طارت العصافير كان يسمع صوت العصفورة التى نهرها وهى تقول انه لايمكن لأحد أن يقاوم العطش ، وان الطيور تنسى كل شىء فى الفضاء الواسع ٠ لم يخطر بذهنه أن حسان يقطع الشجرة ٠ لكنه وجد ساقيه أكثر اهتزازا ٠ اتجـه الى

الشجرة محزونا وجعل ينزع أوراقها الكثيفة . قال حسان :

ــ ماذا تفعل ؟.

ــ أريد الفروع . نجففها ونشعلها بالليل .

كان الفضاء حولهما أوسع من الأرض . الأرض أوسع من السماء . أحس كلاهما أنه لابأس أن تكون السماء أرضا ، والأرض سماء ، فليس بالكون أحد . لكن حسان قطع غصنا قدمه الى سالم :

ــ قم واغرسه حتى يصير شجرة .

ــ لماذا قطعت الشجرة الثانية ؟.

قال حسان مبتسما :

ــ انها الخامسة وأنت تنسى .

كان وجه الأرض أشد قتامة من اليوم الأول . ارتفعت أشجار الشوك وتضخمت . باتت القضبان خارجة عن أماكنها فى أكثر من موقع . بدا الغراب الذى ينحنى عند الهامة ، ويتدلى منه خرطوم أجرب مهترىء ، مثل «مقاتل قديم يلقى السلاح» . تناول سالم الغصن وغرسه . وبالليل قال :

ـ هذا شتاء لايرحم ·

كان حسان ينفخ فى النار الموقـدة · لقـد نقل متاعه الى كوخ سالم وصارا يعيشان معا · وحين أفزعهما صوت ارتطام قوى قال حسان :

ـ لقـــد سـقط الغـراب · تآكلت الماسـورة ، وانكسرت ·

وحين انتهت الحـرب الثـانية اختفت القطارات السوداء تماما · لاحظ سـالم أن الثقوب انتشرت فى ماسورة الغراب ، وكان حين يفتح الصمام ليشرب أو يغتسل تخرج المياه من الثقوب مثل النافورة ، وصار قطار الميـاه الأسـبوعى يأتى كل شهر ليملأ الخـزان الأرضى ، ثم اختفى بدوره · حفر سـالم بئرا لنفسه ليشرب منها · حفر حسان لنفســه بئرا أخـرى · الآن يشربان من بئر واحدة ·

شرد سالم وفكر فى اليوم الأول · ترى كم يكون عمره الآن ؟· فاجأه حسان قائلا :

ـ ألا تود العودة الى المدينة ؟ لقد تغيرت كثيرا ·

أجا بسالم :

ـ قال الملاحظ ذلك منذ زمن ·

قال حسان :

ـ لقد هـدموا العمارات وأعادوا بنـاء مصـنع الغزل ٠

جذب سالم أسمالا قديمة وضعها خلف ظهره ٠ فكر (كأنما كان المقصود فقط هدم بيتى القـديم) ٠ قال حسان :

ـ انهم يتحدثون عن حرب أخرى ٠

لم يعلق سالم ٠ قال :

ـ هل ستقطع الشجرة الجديدة ؟٠

كان مايزال يحلم بالعصافير ٠ لقد سقط الغراب ، وربما اذا عادت تقف فوق الشجرة ٠ لكن الرياح كانت تصفر فى الخارج ٠ صوت الرعـد يتعاقب كأنه جبل يسـقط من فوق جبـل ٠ البرق يتسـلل ليمـلأ الكوخ بالرهبة ٠ ووضع حسان براد الشـاى فوق النار وهو يقول :

ـ لدينا حطب يكفينا عاما آخر ، ولايجب أن نموت بردا بأى حال ٠

القنفذ

(١)

دق المنبه فذكره بموعد اطعـام القنـافذ • كان الوقت مساء • وكانت وجبة اليوم الأخيرة • نهض الى المطبخ وأدفأ الطعـام • كان خبزا باللبن مضـافا اليه الماء • ابتسم مبتهجا لانه نجح فى تجاربه •• لقدتوصل الى ذلك بعد جهد شديد ، فقد كان يعـرف أن القنافذ لاتأكل الا الحشرات • لكنه يعرف أيضا أنه بالغريزة يريد الحيوان أن يعيش • أن الانسان اذا جاع يأكل أى شىء قد لايكون اعتاد عليه • وأن النـاس تأكل ــ فى أعـوام المجـاعة ــ أولادهـا بعـد أن شحت القطط والكلاب ، فكيف يكون الحيوان والحالة هكذا • الحاجةاذن أقوى من العادة • وهو لن يستطيع أن يجمع الحشرات الكافية للقنافذ • فليحبسها طويلا عن الطعام ثم يقدم لها الخبز باللبن فستأكله •

وكان سعيدا حين نجح ورأى القنافذ تقبل مبتهجة على هذا الطعام الجديد • بل وتقفز داخل الاناء الواسع، الذى ينزله اليها من أعلى القفص الذى يضـعها فيه ،

وتبدوداخل الاناءكأنها تسبح فى ماء ثقيل . لكنه كشخص يعرف مايريد كان بين الحين والحين يحضر بعض الحشرات ويتركها تسير أمام القفص . كان يرى تطلع القنافذ اليها . محاولتها المستميتة أن تمد فمها الطويل من بين سلك القفص لتطول احدى الحشرات . لكنه وقد جعل الحشرات بعيدا عن القفص بمسافة معقولة كانت القنافذ تفشل وتتقافز متوترة . كان يفعل ذلك حتى لاتنسى القنافذ دورها الطبيعى فى الحياة ودورها المنتظر الذى يعدها من أجله .

(٢)

حينما كان طفلا كان أبوه عاملا بالسكة الحديد ينتقل الى الصحراء مصطحبا أسرته . وكان حين يذهب الى العمل يأخذه معه . كان صغيرا والابن الوحيد . وفى المساء بعد يوم عمل شاق كان يرى آباه يصطاد القنافذ أثناء عودته ، ثم يحتسبها أياما فى البيت حتى يبيعها . وكان هو يتابع حركة القنفذ فى البيت فيراه يمشى جوار الجدران كعجوز خبيث لايدرى لماذا . وكان معجبا بفم القنفذ الطويل ، خاصة حين يراه يلتقط احدى

الحشرات وكانت أمه تقول ان فم القنفذ يذكرها بفم الفأر رغم طـوله ، وأحيـانا بفم الخنزير · وفى كل الأحوال يشعرها بالقرف · كاد يكره القنافذ لانه يحب أمه لكنه أحبها حين رأى القنفذ يتكون حول نفسه مشرعا شوكه ثم يدور بسرعة حول الأرض مهاجما فأرا أبيض أكبر منه فى الحجم · فعـل القنفذ ذلك أكثر من مرة والفأر المسكين كلما قفز فوقه دار به فصرخ ثم شاهد الفأر بعد ذلك وهـو يلفظ أنفاسه بائسـا ينز دما · وكان هو مغتبطا لأن هذه كانت أول مرة يسـمع فيها صوت الفأر · وحين حـدثه أبوه عن القنـافذ قال أن القنفذ حيوان جبان يسير جوار الجدران والقضبان · ولكنه اذا اطمأن الى الخلاء خرج اليه · وهو عدو شرس للحشرات والفئران والثعابين، لكنه يعجز أمام الانسان· ثم قال ان القنفذ أفضـل شىء لتنظيف البيوت وقتـل حشراتها · وجعله يمسك قنفذا صغيرا · حين أمسكه وجد أن شوكه المشرع لاينغرس فى يديه · قال له أبوه أنه لايشرع الشوك الى مداه الا اذا قرر الدخول فى معركة· تماما كما حدث يوم أن رآه يهاجم الفأر الأبيض ·

ولم يكن هو يتصور أنه سيعود الى القنافذ بعد هذه السنين الطويلة ·لكن تلك كانت ليلة ذات طابع خاص·

طابع لايدركه ــ كما قال لنفسه ــ الا أصحاب الأدوار العظيمة . أولئك الذين يوجدون مرة واحدة كل مائة عــام أو يزيد ، والذين تنــدفع بهم مسيرة الانســان البائس !. فى تلك الليلة قال لنفسه أن انسانا مثله بلغ من العمر الثامنة والثلاثين ، لابد أن يقف لحظات ليعرف ماذا يفعل أو كان عليه أن يفعل . أمضى شهرا كاملا لاينام . يأكل اذا تذكــر ونادرا ماتذكر !. لم يغتسل ونسى الاستحمام . نمت لحيته بشكل مفزع . طال شعر رأسه والتف حول بعضه . لم يغير ثيابه . نظر حوله فى غرفته الوحيــدة تحت الأرض فوجــدها قذرة جدا امتلأت بالعناكب والحشرات . نظر فى المرآة فهتف «أى قذارة هذه التى حولى من كل جهة ؟» . وقرر تنظيف الدنيا ...

(٣)

كانت القنافذ تقفز داخل وحول الاناء الذى أدخله اليها وكان يسمع أصواتها بعد أن عاد الى حجرته وجلس فى أحد الأركان خلف منضدة صغيرة فوقها مصــباح كهربى وبعض أوراق . كان دائما قبل أن ينام يكتب

بعض خواطره الهامة حول المشروع · فى هـذه الليلة كتب ··

«الانسان كائن حقا لكن كيف يكون الانسان ؟ تلك هى المشكلة · ــ وتذكر كيف عود القنافذ على الطعام الانسانى ــ وأنا مثـلا قررت أن أكون على طـريقتى الخاصة التى ستفجعكم بالتأكيد ، فالطريق الى تنظيف الدنيا يبدأ من هنا · من هذه الحجرة فى هذه الفيللا النـائية ، ثم من هـذه المدينـة الكبرى التى امتـلأت بالحشرات · لاتتصوروا أنى سأمكث هنا وقتـا طويلا · اطلاقا · ان ايجار هـذه الفيللا آلف جنيه كل عام وأنا لا أمتلك مايجعلنى أبقى عاما ثانيا بل لن أكمل العام · فكل ماتوفر لدى هو خمسمائة جنيه جمعتها بعد عمل عشر سنوات كموظف حـكومى لا قيمة له فى مكتب مزدحم بالرجال الجـوف والنساء القبيحات · ان أى شخص عادىيعرف أنى دفعت هذا المبلغسيصفنى بالجنون خاصة اذا عرف مشروعى · تمـاما مثل خطيبتى التى القت لى دبلة الخطوبة على المنضدة · وصرخت الى امها المرأة البدينة جدا التى تأكل الارز كثيرا ، وقالت وهى تضرب كفيها ، ولن اقول لكم انها شقت صـدرها حتى لاترون نهديها فانا اعرف خيالكم المريض ·

ـ تصورى يا ماما انه يريد ان يؤجر فيللا ليصطاد القنافذ ونحن فى حاجة الى آضعاف هذا المبلغ لنحصل على شقة صغيرة ٠٠؟ .

وكنت انا صامتا٠ كنت اعرف الحكم الذى ستصدره المرأه البدينة جدا التى كانت ستكون حماتى وكنت فى انتظاره ٠ لكن لفت نظرى كـلام خطيبتى الذى لايشى باعتراضها على صيد القنـافذ كموضوع ، بل يعنى انها تريد الشـقة أولا ٠ قلت انى لست وحدى ٠ لكن المرأه البدينة جدا قالت بهدوء :

ـ ياولدى ٠ ان فى عائلتنا مايكفى من المجانين

ـ وكان لها فعلا بعض الأقارب فى مستشفى الأمراض العقلية ـ ياولدى كل شىء نصيب ٠

وفتحت لى باب الشقة بعد هذه الحكمة البليغة فخرجت ولم أنس أن آخذ الدبلة ٠ ولم أمنع نفسى من الاعجاب بصراحة هذه المرأة ٠

أقول ان أى شخص عادى سيقف منى نفس الموقف٠ لكنى بما سأفعله انما أردت أن أخاطب أولئك الرجال العظام النادرين وأفتح لهم الطريق» ٠٠

ثم قرأ ماكتبه فاعجب به لكنه شطب الحكمة البليغة وعاد فكتب بعض الملاحظات الصغيرة ·

«اصطدت اليوم قنفذا صغيرا أطلقت صراحه شفقة » ·

«تأقلمت القنافذ على الطعام الانسانى · لكن لو أكلها بنى آدم يكون قد أصدر على نفسه حكما بالقذارة الأبدية » ·

«القنافذ القديمة لاترحب بالجديدة فى البداية ، لكنها سرعان ماتتصافى وتنظر الى جميعها فى غيظ · لابد أن أجد طريقة أجعلها تحترمنى بها وتعرف أنى أعدها لعمل عظيم »

«أحد القنافذ نظر اليوم الى الاناء الفارغ المعلق فوق القفص ثم نظر الى وأشار بقدمه الأمامية · لابد أنه كان جائعا» ·

«هناك قنفذ غريب الشأن مايزال يمشى جوار جدران القفص السلكية ويتحاشى زملاءه · سأنقله فى الصباح الى قفص آخر وأرى ما اذا كان سيتآلف مع القنافذ الأخرى أم لا · من يدرى · ربما يعانى من غربة عنيفة · لكنه على كل حال يذكرنى بمديرى فى

العمل الذى يهوى السير جـوار الجدران ليتصنت على مايدور داخل المكاتب » .

(٤)

انفق الصيف كله يجمع القنافذ فى المساء . أعطاه الكدر الذى كان يشعر به نهــارا طاقة كبيرة . وكانت الفيللا تقع فى أقصى جنوب المدينة وسط منطقة صحراوية بها بعض التلال والكثبان والطرق القديمة . ويشــعر بعد أن يعود من العمل فى المدينة أنه فى هــذه المنطقة المعزولة قد تسيد العالم . أن الفيلات التى حوله قليلة وتبدو مهجورة . وبين الحين والحين يرى من خلف النافذة ســيارة تقف أمام احــدى الفيلات وتهبط منها جماعة صاخبة من الرجال والنساء لكنه حين يلتفت فيرى الكم الهائل من القنافذ يبتهج ، ويحمد الله الذى خلق هذا الحيوان التــافه الذى سيساعده فى مهمته . ومع أيام الشتاء الأولى أحس أنه بدأ ينسى كل شىء عن المدينة والعمل ومن عــرفهم أو أحبهم . أدرك أن ذلك بسبب تركيزه الشديد على القنافذ . قال لنفسه «لابد أن أظل مدركا متى انتهى ، أننى لست قنفذا حتى أعيش بينها، ولست هاويا لجمعها ، ولابد أن أعترف أنى أشعر بالقرف منها لأنى ورثت الكثير عن أمى .

وظل يتذكر أشياء كثيرة ٠

فيوم أن التحق بالجـامعة كان سعيد ايكاد يطير ٠ ويوم أن تخرج أحس أنه وحده فى الدنيا وبكى ٠ قال له أحد الأساتذة «سعيد؟» رد «كما ترى ياسيدى» ٠ ويوم أن مات صديقه الوفى فى الحرب الأخيرة بكى أيضا ٠ وبعد سنوات ضحك فجأة فى العمل وبصوت مرتفع ٠ سألته احدى زميـلاته التى كانت أحضرت معها طفلها وكانت تغير له ثيابه بعد أن بال على نفسه وسط المكتب، لماذا يضحك هكذا ؟ ٠ قال :

تذكرت صديقى الذى مات فى الحرب ٠ «قالت» فهل تضحك ؟ قال «رأيته يبكى» ٠ ويوم أن قالت له حبيبته الأولى ـ قبل خطيبته ـ «الدنيا أمامنا» رقصت الدنيا أمام عينيه لكنها فى اليوم التالى قالت له أن يساعدها فى استخراج جواز سفر ٠ سألها لماذا قالت بهدوء «سوف ألحق بزوجى» ظنها تعبث ٠ أكدت ذلك ٠ وعرف أن أحد شباب الحى كان قد سافر الى احدى الدول الغنية وأرسل توكيلا لوالده كى يعقد عليها ويريدها أن تسافر اليه على الطائرة مـرتدية ثوب الزفاف ٠ لكنه يتضايق مما يتذكره ، ويحاول أن ينسى ثم يعـود يخشى النسـيان فيجهد نفسه كى يتذكر ٠ وكان أكثر ماتذكره وجـه

«الكناس» الذى كان ينظف الأزقــة والشــوارع حول بيتهم القديم حين كان يعيش مع أسرته • اختفى هذا الكناس وحين سأل عنه قيل له ان هذه مهنة انقرضت ، وأن أحدا لايقبل عليها • فسر له ذلك ارتفاع أكوام القمامة فى الطــرقات بالمدينـــة والحــرائق فكتب فى يومياته مخاطبا هذا الكناس «لاتحزن • اننى أعد جيشا من الكناسين الصغار» •

(٥)

حين انتصف الشتاء قل محصوله من القنافذ فكتب حزينا •

«فى نفس الوقت الذى اختفت فيه القنافذ لاأستطيع أن أمنع نفسى من الحــزن لاجلها ولاجــلى فلقد خسرت باختبائها فى جحورها لذة المهمة التى كنت أعدها لهــا وخسرت أنا أعدادا كبيرة منها» •

ثم لاحظ أن القنافذ بدأت تعاف الطعام الانسانى وتهزل فقرر أن يجمع لها الحشرات • لكنه أدرك عجزه عن ذلك فكتب : «لم يعــد لدى وقت • اما أن أنفذ ما انتويته بسرعة أو تموت القنافذ» • وتذكر أن القنافذ

التى كان يصطادها أبوه كانت أكبر حجما مما اصطاده هو فكتب :

«لايعني ذلك أبدا أن حشرات الماضى كانت أكبر ، ولكن يعنى أن حشرات الحاضر أشـد خبثا ولاتستسلم بسهولة • لايجب أن ننسى ذلك» • وكان سـعيدا بهذا التفسير •

وفى الصباح اشترى الصحف جميعها • كان أقلع عن ذلك منذ خمسة أشهر وجد الصحف جميعها تحمل نفس العناوين القديمة • قال لنفسه أما أن البائع قد غشنى ، واما أنى قد صرت مجنونا • وفى كل الأحوال لاداعى للنظر الى تاريخ اليوم •

وقرر أن ينتهى من مهمته فى المساء •

(٦)

أقبل المساء متأخرا فتساءل كيف يتأخر الليل فى فصل الشتاء ؟ وكان قد استأجر عربة نصف نقل ليوم واحد • حمل الأقفاص من الفيللا اليها • ولاحظ أن صفحة السماء رائقة خالية من السحب وأن القمر مكتمل فابتهج • ان مايفعله اليوم سيكون واضحا •

حين انتهى من نقل الأقفاص التى كانت ثقيلة وقف أمامها مزهوا . «عشرة أقفـاص فى كل منها عشرون قنفذا . أى ليلة ستكون هـذه ؟» . ثم قاد العـربة الى الميدان الكبير فى منتصف المدينة . فى وسط الميدان توقف . آثـر أن ينتظر حتى الفجـر . لكن البرد كان شديدا . وتذكر أنه وجد قنفذا ميتا فى كل قفص فخشى أن يلحق به الآخرون . ترك العربة وانزل الاقفاص . حمل كلا منها الى بداية طريق يتفرع من الميدان الكبير. كان يعرف أن أحدا لن يمنعه . فالشرطة نائمة ناشدة الدفء فى أكشاك الحراسة والوقت صار منتصف الليل ولايوجد مارة . ولاحظ أن انزال الأقفاص أسهل من حملها الى العـربة . أحس بذلك وقرر أن يكتبه حين يعود !

وبعد أن وزعها جميعا على عشرة طـرق عاد من حيث بدأ ليفتحها . كيف سيكون حال المدينة حين تتسرب القنافذ من هذه الطرق العشرة الى كل الطرقات ؟. ان مائتى قنفذ شره لكل ماهو قذر تكفى وحدها أن تعيد الوجه الناصع الذى يريده .

وفتح غطـاء القفص الأول دون أن ينظر اليه . أمال القفص الى جانبه ولدهشته لم يخـرج منـذ قنفذ

واحد . هز القفص مرة ومرتين فلم ير قنفذا خارجا .
نظر الى القفص بدقة فوجده خاليا الا من القنفذ الميت.
قال قد تكون القنافذ قد خرجت بسرعة شديدة أعجزته
عن رؤيتها .

توجه الى القفص الثانى . فتح غطاءه وأماله الى
جانبه . لدهشته لم ير قنفذا خارجا منه . دقق النظر
فى القفص الثالث فلم ير غير القنفذ الميت رغم أنه لم
يفتح غطاءه . جرى الى الرابع ثم الخامس حتى العاشر.
وجدها جميعا خالية الا من القنفذ الميت . لم يبتئس .
كان البرد شديدا فأحكم السترة حول صدره . تذكر أنه
حين استأجر العـــربة لم يكن معـــه من النقود الا ثمن
أجرتها . صار متحيرا يفكر هل يذهب ليسلم العربة
ويعود الى الفيللا التى فى أقصى المدينة ماشيا ، أم يعود
الى الفيللا وينتظر أن يأتى صاحب العربة ليأخذها :

ارتاح الى الحل الثانى لكنـــه أدرك أن صـــاحب
العربة الأحمق بعد أن طلب منه البطاقة الشخصية نسى أن
يأخذها ، ومن ثم لن يعـــرف كيف يصـــل اليه . لكنه
كان مايزال يشعر بالبرد . رفع يديه ليحكم السترة
من جديد . نسى أنه قد فعل ذلك من قبل .

المسفر
الاجـابة

لايعرف لماذا حاول أن يفهم معنى الكلمة · فى المكتب الرئيسى لخـــدمة القطـارات نـاداه البعض «بالمتســفر» ، والآخــرون «بالمســفر» ، وأخبروه أنه محظوظ ، فأجـر ليلة الســفر بليلتى عمل ، وسرعان ماأصبح بلا وطن ·

سفروه فوق قطار ليعود فوق قطار · الى الشمال والجنـــوب · الغــرب والشرق · صـــار معلقا فوق القطـارات لايمضى فى بلدة أو مدينــة أكثر من ليلة واحدة · بين البلاد والمدن حقول ورمال · بين الحقول والرمال بلاد ومدن ·

حـراسة :

فوق سطح عربة عالية فى منتصف القطـار كان يجلس متلفحا بعبــاءة من الصـــوف الخشن الرخيص «ويكبس» الطـاقية فوق رأســه يغطى أذنيه ·· انه يستطيع القفز من عربة الى آخرى عكس اتجاه القطار

بسهولة • فى اتجاه القطـار يحتـاج الأمر الى جـرأة لايملكها • اذا قفز عكس اتجاه القطار اذن لن يستطيع العودة • المنتصف أفضل نقطة يكشف منها اللصوص فلن يبرحها • واذا جاءوا من الخلف فليقفز اليهم حتى ان لم يستطع العـودة بعد ذلك • آه • ماذا يحـدث لو هاجموا القطار من الأمام ؟ السلاح الوحيد مع الشرطى الذى لايبرح السبنسة آخر العربات !!

الأحجـار :

أعظم القطارات هى التى تحمل العتاد العسكرى • ملأى بالجنود • يتسـامرون معه • ليس بهـا سبنسة ولا شرطى لايـراه • ولأنه لم يخلق اللص الذى يسرق دبابة أو مدفعا من فوق القطار ، فهو يستطيع أن يضحك ويغمض عينيه •

قطارات الغلال والأقطان والقصب خوف • قبل أن يصعد فوقها يجمع كمية كبيرة من الأحجار • يقول كل لص بحجر •

مرت سنوات ازدادت فيها القطارات الحربية ، فلم يكف عن الضحك مع الجنود والسمر • لم يهاجم القطارات الأخرى أى لص ، لكنه ظل يجمع الأحجار !!

أعوام الصيف والشتاء :

فى الصيف خلف القطار القمر · كل منهما يجرى فى اتجاه · لكن يبــدو كأنهما لايتحــركان ، أو كان الأرض تحملهما وتسير بها معا · يطلع النهار فجأة ينتهى السباق · كثيرا مايتمدد منتشيا حين يرى القمر يختفى من ناحية والشمس تبزغ من ناحيــة · ان أحــدا لم يرهما مثله معا · لكن الشمس تصعد بسرعة وتقف فوق القطار الذى يظل يحملها فوق رأسه هو · فى الشــتاء يختفى قمر الليل ولا تحب الشمس النهار ·

حــلم :

ذات ليلة وقفت امــرأة جميلة على حافة العــربة الأخيرة · لم يكن قد فكر من قبل فى النساء · وجهها كان شمس ليل ، وعيناها كانتا قمرين ·

قفز العربات التى تفصله عنها بسهولة فلم يصل اليها · انتقلت الى أول عربات القطار · عاد قافزا فى اتجاه السفر · بسهولة تم ذلك أيضا فلم يندهش ، وهو الذى ظنه دائما محالا ، ولم يصل اليها ·

عاد الى المنتصف وجلس · طالت ليلة الصيف · ظل قمرها يضحك ·

ظلت المرأة تطير فوق القرى والمدن والمحطات الوحيدة . ولم تكن قاسية . يقف القطار فتتركه يجرى وراءها فى الأسواق . تذكر أنه لم يتحدث مع الشرطى قط . انه حين يقف القطار يختفى ولايراه الا عند السفر . سأله أين يذهب . كان يود أن يصاحبه . قال الشرطى انه متزوج ، وله فى كل قرية امرأة ، وفى كل مدينة أطفال !!

أمنية :

هل يمكن أن يتمنى أحد شيئا عشرين عاما . انه منذ صعد القطار الأول وسمع صوت عجلاته وهى تطوى الفضاء وهو يفكر أن يحصى العوارض التى تمتد فوقها القضبان . كان يعرف أن ذلك سهل ولايكلفه غير النظر من بين عربتين الى أسفل ...

الآن وقد صار عجوزا يفعل ذلك . ينام فوق بطنه لايبرز من حافة العربة غير رأسه . فى كل مرة تهرب العوارض من تحت عينيه .

القطار اللعين الذى يفر الى الأمام يركل العوارض بسرعة جنونية الى الخلف . يعتدل جالسا ضاحكا غير

مصدق أن الأمر محـال · يضحك وحـده فى الفضاء الأبيض · يدرك كم هو أحمق · ليس هنا غير عارضة واحدة تتكرر · لو كانت هناك غيرها تجرى الى الخلف لكان هناك «مسفرون» غيره يجرون الى الأمام ، والحقيقة أنه واحد فقط ·

لم ير فى مصلحة السكة الحديد «مسبـفرا» غيره ولا شرطيا غيرالذى فى السبنسة · لا قمر غير الذى فى السماء ذات النجوم ولا شمس غير التى فوق القطار · أما المحطات الكثيرة ، والقرى والمدن والجنـود الذين يرافقون العتاد العسكرى ، فهم مثل الحقـول والرمال وأعمدة أسلاك التليفونات يقترب منها فتبتعد ·

للكون أركان أربعة حقا وفارغة ، والقطار الذى يجلس فوقه الآن مثل مقعد صـغير فى غـرفة خالية ، فالانسان لايستطيع أن يمضى عمره واقفا ·

الحكايات :

صار يقول للجنود انه رأى كل الحروب · يضحكون ويتجهمون · حدثهم كثيرا عن القنابل التى سقطت فوق القطار ولم تصبه · عن نفسه كيف صوب مرة حجرا الى

طائرة ولم يصبها !· يضحون ويتجهمون · فى المحطات الأخيرة كان يمضى الليل مع رجال يتغيرون ، لكنهم دائما صامتون ، ولأن لديه ذاكرة قوية ، وحكايات غريبة ، كانوا يسمعونه ، لكنه حين يقول ان قمر زمانهم هـذا شمس ، وشمس زمانهم هذا قمر ، لايصدقونه ·

العجوز والصبى فوق الجسر

لايميز الصبى لون السماء ، ولا لون سطح البحيرة الفسيح ذى الموج الهـادىء ، فالفضاء واسـع رائق ، والكون خيمة بيضاء كاللبن ترتفع الى وسطها الشمس المذهبة واهنة الأشعة ، وهنـاك عنـد الأفق الدائرى قطعان متناثرة صغيرة الحجم من السحب البيض أيضا ·

الصبى الذى جاء ليصطاد اليوم سابح فى هذا البياض الجارف بعد أن اصطاد عشر سمكات فى وقت قصير ، ويتمنى ألا تنتهى أجـازة نصف العـام ويعـود الى المدرسة ·

لكن «الفلة» الصفراء اهتزت فـوق الماء هـزات سريعة دقيقة · لابد أنها سمكة صـغيرة الفم والجسم ، فليعابثها · طفلة هى تحب أن يهدهدها أحد · فليفعل · سيجعلها بمهارته تأكل الطعم من حول الصنارة دون أن تلتهمه · هل يستطيع ؟

غاصت «الفلة» وانحنت البوصة الطويلة الرفيعة فى يده · تراخى فى جذب الصنارة · أرخى الخيط أكثر

عل السمكة تجد فرصة فى النجاة · لافائدة · جذب· رأى السمكة معلقة أمامه فى الفضاء تتقافز عاجزة عن الصراخ · كانت صـــغيرة كما توقـــع وكانت مبهـــرة الألوان · لو لم يكن هذا حجمها لوجد فى باطنها خـــاتم سليمان · لكنه أحس بحركة العجوز جواره · رآه ينزل الى البحيرة وتغوص قدماه حتى ركبتيه ، ويغرس فى طين القاع ثلاث بوصات قوية ثم يضع بينها «جوبيا» من السلك لاتكاد حافة حلقها الدائرى تظهر فوق المـــاء · يعرف أن بعض الصـــيادين يســـتخدمون الجـــوابى اذ ينصبونها ليلا وسط الماء فى أماكن مدروسة ، خاصة تلك التى يكثر فيها الهيش ، وفى الصباح يجمعونها بما سقط فيها من سمك · الآن يرى أحدهم يفعل ذلك ، فى الصباح ، وعلى الشاطىء مباشرة · لكنه رأى فوق الجسر شبكة ملقاة جوار سلة صغيرة من البوص مالبث العجوز أن حملهما بعد خروجه من الماء ·

رآه الصبى يقف غير بعيد عنه ويضع السلة فوق الأرض ، ثم يأخذ فى اعداد الشبكة الصغيرة ، اذ يجعلها طبقات فوق بعضها وفوق زند ذراعه اليسرى ، ويخلص قطع الرصاص المتدليةعند الأطرافمن بعضها فتتجاور، وكذلك قطع الفلين عند الأطراف الأخرى ، ثم بحركة

رشيقة يقذف بالشبكة الى الماء · ورآها الصبى وقد انفردت مستديرة فى الفضاء ، ثم وهى تهوى الى سطح البحيرة . ثم وهى تغوص شيئا فشيئا ولايبقى منها غير قطع الفلين ماتلبث أن تتجاور وتتجاور حتى تبدو كقطعة واحدة مستديرة وكبيرة · ولاحظ الصبى أن الشبكة لم تبعد عن الشاطىء بأكثر من خمسة أمتار ، وأنها صغيرة لايزيد قطرها عن ثلاثة آمتار ، وآن الحبل الذى يتصل بها ، ويمسك العجوز بطرفه الثانى أطول من المسافة التى قطعتها بكثير ، كما أن العجوز قد ترنح بعد أن قذف بالشبكة وتمالك نفسه بصعوبة · لكن العجوز ابتسم له فابتسم بدوره ، ورآه يجذب الحبل شيئا فشيئا فتبدأ الشبكة فى الظهور · فى البداية ظهر مابدا منها خاليا الا من بعض نباتات خضراء وحمراء ، ثم لمح الصبى أكثر من سمكة بيضاء بارق لونها بين الخطوط القاتمة للشبكة · حمل العجوز ، الذى نزل الى الماء قليلا ، الشبكة الى الشاطىء وأقعى يخلص الأسماك منها · كانت ثلاث سمكات صغيرة وضعها فى السلة البوص فقفزت منها ، وارتبك العجوز وهو يلاحقها ، ونجحت احداها فى العودة الى الماء · ترك الصبى بوصته

وهرول يساعده فأمسك بسرعة باحـدى السمكتين ، بينما نجح العجوز فى الامساك بالأخرى وضحك ·

ـ سلة صغيرة ياولدى ·

لكن الصبى رأى بوصته تنحـدر الى الماء فجـرى عائدا ، وأمسك بها جاذبا صنارته فارتفعت أمامه سمكة كبيرة غير أنها سقطت الى البحيرة ، وقد أخذت الصنارة معها بعد أن قطعت «الخيط» بأسنانها · نظر الى العجوز وضحك ، ورآه مقبلا نحوه فى يده السمكة الصغيرة ، فأدرك الصبى أنه لايزال يمسك بالسمكة الأخرى فى يده ·

ـ واحدة بواحدة ·

قال العجوز وهو يضع السمكة فى الجوبيا ويضحك بلا صوت ، فوضع الصبى السمكة الأخرى فى الجـوبيا أيضا وقال :

ـ لكن سمكتى كانت أكبر ·

فقال العجوز :

ـ سأصطاد سمكا كبيرا بعد قليل ·

وعاد ليحمل الشبكة والسلة ويبتعد أكثر ، ورآه

الصبى من بعيد ينزل الى الماء حتى وسطه ويقف يرتب الشبكة فوق زنده ، ولاحظ أن سرواله الأسود الفضفاض يطفو خلفه فوق الماء مثل كرة منفصلة عنه ،.الا أنه عاد واستغرق فى اصلاح شصه • ركب هذه المرة صنارتين مما يحتفظ به ، وأطعمهم ابالدوذ ، وفكر فجأة لماذا لايوجد فوق الجسر غيره والعجوز فى هذا اليوم الشتوى الصحو الجميل ؟

الجسر الطويل العريض يمتد الى مالانهاية على الناحيتين • يبدو شيئا ضخما حقا بالنسبة الى شخصين • فكر الصبى من قبل كثيرا أن يمشى فى أى من الاتجاهين ليرى ما اذا كان الجسر يشق الاسكندرية حقا دائرا حولها كما يقال • انه لايصدق ذلك ، خاصة وهو لم ير أحدا قادما من أى من الجهتين • الناس جميعا تأتى من طريق واحد هو الذى يقطع سوق السمك القديم • لقد كبرت مساحة السوق ولم يعد ضيقا ولا مزدحما لأنه زحف فوق المناطق الضحلة من الناحية الغربية من البحيرة • قسم الجسر البحيرة الى نصفين كبيرين يموت القسم الغربى منهما وتضحل مياهه • لماذا فعلوا ذلك بالبحيرة ؟ لا سيارة تمر فوق الجسر ، ولا بيوتا أقيمت فى الأرض الجافة ،

بل دائما مايترك الرجال والشباب والصبية الصيد ويتحولون الى القسم الغربى يتبولون ويتغوطون ٠

ـ أنظر ٠

قال العجوز الذى كان قدوقف خلفه دون آن يشعر٠ كان منحنيا على سلته الصغيرة يهزها بيديه ليعوق حركة الأسماك داخلها ٠ ورآى الصبى خمس سمكات كبيرة بيضاء وخضراء ذات زعانف برتقالية ، ورآى ساقى العجوز ترتعشان والماء يقطر من سرواله ٠

قلب العجوز ما بالسلةداخل الجوبيا ،وقال ضاحكا بلا صوت :

ـ وضعت الجوبيا مرة بجوار صبى مثلك فكان يصطاد منها ، هرب وترك لى الجوبيا خالية ٠ كان شيطانا ٠

ولاحظ الصبى أن العجوز يرتدى آكثر من فانلة قديمة تحت الصديرى الأسود ، وأن أصابع قدميه الحافيتين طويلة وعريضة ذات أظافر سوداء ، وآن أصابع يديه طويلة أيضا وعريضة رغم صغر الكفين ٠ العجوز نفسه أسمر ذو شارب أبيض ، وشعر رأس أبيض خفيف ، وجبهة عالية لامعة غضونها كأنها

مدهونة ، وانصرف العجوز فبدأ الصبى ينشغل «بالفلة» التى تهتز · غاصت فجذب البوصة فخرجت الصنارتان خاليتين · أطعمهما من جديد ، وألقى بهما فى الماء الا أنه بعد لحظة سحبهما بهدوء ، وأزاح البوصة خلفه حتى أصبح طرفها الأمامى فى يده ، وجعل يلف الخيط حوله حتى أصبح قصيرا جدا ، وبهدوء أنزل الصنارتين فى المكان الذى تختفى تحته (الجوبيا) · لحظة وغاصت «الفلة» فجذب برفق حتى لاتعلق احدى الصنارتين بجدران الجوبيا السلكية ، ورأى أمامه سمكتين · فصلهما ووضعهما فى السلة البوص التى جواره ، والتى يغطيها بقطعة من الخيش المبلول وعاد يصطاد من الجوبيا ·

ـ أنظر ثعبان وقرموط معا ·

كان العجوز يهتف وهو يقترب ، وكان الصبى قد فطن الى قدومه من قبل فنقل صنارتيه الى البحيرة · لقد اصطاد الآن أربع سمكات كبيرة · لكن العجوز السعيد لم يلق بصيده داخل الجوبيا هذه المرة ·

ـ قم وابحث لنا عن خشب نشعله ، سأشوى لك سمكا ·

بدا الصبى غير مستوعب لما يسمع لكن العجوز قال :

ـ الجو بارد ولابد أنك جعت مثلى ٠

ارتبك الصبى وقال :

ـ لايوجد هنا خشب ٠

ـ كيف تعرف ٠ ابحث تجد ٠ وفوق الجسر يوجد كل شىء ٠

نهض الصبى غير مصدق لما سيفعله العجوز ، غير أنه أمسك بنفسه متلبسا بالنشوة المفاجئة ، ومضى فوق الجسر خفيفا يشعر بالملمس الناعم لبنطلون بيجامته ، ويفكر لو لم يرتد البلوفر القديم تحت جاكت البيجاما لكان أفضل اذ يسهل على الهواء الحنون التسلل الى صدره كما يتسلل الى ساقيه ، ولم يمش طويلا حتى عاد يتعجب من وفرة ماوجد من خشب قديم فوق الجسر ٠

وجد العجوز يمسك بقطعة مربعة كبيرة من الصفيح القديم ، وكان قد حفر حفرة غير عميقة فى الشاطىء المنحدر ، ووضع فى جوانبها قطعا صغيرة من الحجارة مرصوصة كجدران ٠ آلقى العجوز بالخشب داخل الحفرة وأشعله ، وساعدت الريح الخفيفة على آن تقوى النيران، وشيئا فشيئا طقطق الخشب ٠

ـ خشب رطب يحتاج لنيران قوية .

قال العجوز وهو يضع قطعة الصفيح فوق النار بحيث تستند بحوافها على الحجارة المرصوصة . لاحظ الصبى أن قطرات من المياه تتساقط من سروال العجوز الذى أقعى أمام النار وأن الأرض تتشربها بسرعة كأنها أرض من رمال وليست من تراب أسود . وقف العجوز وأخرج من جيب صديره مطواة عجز عن فتحها . كانت صغيرة جدا فأعطاها للصبى الذى فتحها بأظافره . أمسك العجوز بالثعبان من عند رأسه وأدار السكين حول عنقه تحت الرأس مباشرة دون أن يقطعه ، ثم أمسك بطرف الجلد وجذبه جذبة واحدة الى الخلف فخرج من فوق جسم الثعبان ببساطة وسرعة كما يخلع الانسان سرواله .

ـ خفت ؟

ـ لا .

أذن اتركنى أشوى ، واستمر انت فى الصيد .

لكن الصبى فضل أن يتفرج ، كما أنه خشى أن يرى العجوز كيف قصر خيط بوصته . لكن العجوز فاجأه :

ـ لماذا قصرت الخيط ؟

ـ المياه ليست عميقه هنا .

أجـاب الصبى ثم تعجب كيف تخـلص من الموقف بسرعة :

ــ لماذا لا تنتقل ؟

عجز الصبى عن الاجابة هذه المرة فظل صامتا ٠

ــ أتذهب الى المدرسة ؟

ــ أجل ٠

ــ عندى ولد فى سنك لكن لا يحب المدرسة ٠

كان العجوز يتكلم ويضحك معا ٠

ــ يصطاد ؟

ــ لايحب الصيد ٠

لم يشأ الصبى أن يستمر ، وطـال الصـمت حتى نضج الطعام ، وقال العجوز متابعا حديثا نسيه الصبى ٠

ــ يحب الحرب ٠ كل يوم يقول آنه يحارب ٠ من ؟ لا اعرف ولا يقول ٠ انه يتشاجر كل يوم مع الأولاد فى الشارع

كان الصبى ينظر الى الجهه الغربية الضحلة من البحيرة ٠ كـان فوقها قـوارب قديمة متبـاعده مبعثرة صـدئت جوانبها ، وتآكلت حوافها ، وسقط دهانها ،

فبانت رؤس مساميرها • وقال العجوز وهو يضع قطعة من لحم القرموط داخل الفم الأدرد •

ــ مياه الشتاء لا تقدر على ملء هــذا الجزء • انه يجف •

ــ لكن الجسر قديم •

قال الصبى فجأه كأنه يريد حقا أن يعرف لماذا لم يجف القسم الغربى تماما فقال العجوز :

ــ لكن الدنيا تمطر كل عام ! •

وبعد أن تناول الصبى قطعة من لحم الثعبان ، كادت تلصق بأصابعه لسخونتها ولزوجتها ، قال :

ــ أليس لهذه القوارب أصحاب ؟

ابتسم العجوز :

ــ لها طبعا • كل شىء له أصحابه ، لكن حين أقاموا الجسر مات السمك فى هذه الناحية •

استمر الصبى فى الأكل الذى كان شهيا بحق رغم عدم وجود الخبز ولا الملح ••

ــ لماذا لا يأخــذها أصــحابها ؟ انها كثيرة ويمكن بيعها •

ضحك العجوز بلا صوت كعادته وقال :

ــ لو أمسكت بها لذابت فى يدك ٠ انها من عمر الجسر ٠ عشرون سنة أو أكثر ٠

ولم يفهم الصبى لماذا لم ينقلها أصحابها الى الناحية الأخرى يوم أقيم الجسر ٠

وأحس أنه شبع ، وأنه عطشان ٠ ونهض العجوز يمسح يديه فى جانبى سرواله ، ثم حمل سلته واتجه الى حيث ترك الشبكة ، وكان قد قال قبل أن ينصرف ٠

ــ هل رأيت « الجوبيا » جيدا ؟

نظر اليه الصبى غير فاهم :

ــ انها مفتوحة من أسفل أيضا ٠

بدا الصبى مرتبكا تماما ٠ وزاده العجوز ارتباكا حين قال :

ــ لا تترك المكان حتى تبلغنى كى لا يسرق الجوبيا أحد ٠

ومضى ٠

جلس الصبى يفكر فى دهشة فى السمك الذى اصطاده ، من أين جاء اذا كانت الجوبيا مفتوحة من

أسفل . ثم لماذا يخاف العجوز سرقتها وليس على الجسر غيرهما . أدرك أنه قابل مجنونا ، ومضت فترة طويلة أرخى فيها صنارتيه الى الماء بلا مبالاة ، وعاد العجوز يحمل سلة ممتلئة وهو يلقى مابها داخل الجوبيا الخفية .

ـ من البحر والى البحر .

قال العجوز ذلك ضاحكا ومضى . لكن الصبى لم يتردد . أرخى صنارتيه داخل الجوبيا فاصطاد ، وعاد فاصطاد ، وظل هكذا حتى امتلأت سلته .

كان العجوز قد ابتعد كثيرا ، وخيل الى الصبى أنه يستطيع الهرب ، لكنه بعد أن طوى شصه وحمل سلته ونهض رأى العجوز خلفه .

ـ تمشى ؟

ـ أجل .

ـ انتظر . نمشى معا .

وألقى العجوز ما بالسلة داخل الجوبيا ، ثم نزع الجوبيا من مكانها فخرجت فارغة تماما مفتوحة من أسفل

كما قال · نزع البوصات الثلاث وأمسكها والجوبيا فى يد ، وبالأخرى حمل السلة بعد أن وضع الشبكة داخلها ومشى · كان الصبى بجواره يحمل سلته ممتلئة بالأسماك وكان خائفا ، وكلما حاول أن يسبق العجوز وجده أسرع منه ، ووجد نفسه خلفه ·

الغريبان

(١)

حين خرج من المطار المرطب بفعل التكييف القوى اصطدم وجهه بالشمس · أغمض عينيه للحظات أمام الفضاء الأبيض المتسع ·

«مشوار ·· مشوار ·· مشوار ··»

سمع أكثر من سائق يروح ويجيء ، أو يدور حول سيارته · السيارات الكثيرة مدهشة الأحجام والألوان تفرش الأرض الواسعة أمام المطار · يقولون أنها هنا مكيفة كلها ·

قفز داخل أقرب تاكسى · دخل السائق وقال وهو يجلس «ياهلا» وانطلق فى سرعة مجنونة ·

ــ ها · خفت ؟

خاف اسماعيل فعلا · نظر الى السائق الأسود الصغير · أعجبه جلبابه الأبيض النظيف و «الغترة»

البيضاء الحريرية والعقال الاسود اللامع المجدول فوقها. قال مبتسما :

ـ لا .

ـ المشوار عشرة ريال .

لم يعلق . للحظـة فكر كيف كان يتحرك داخـل المطار ذاهلا . أدرك فقط فى انتباهة لاارادية أن حوله ضجة ، لكن عينيه تركزتا على قاعـة زجاجية غـاصة بالرجال والشباب . كانوا من جنسيات مختلفة فيمـا يبدو من ثيابهم وسحنات وجوههم ، لكن بدا له أنهم جميعا مصريون . كان أمام باب القاعة بعض الجنود . حولها يدور عدد من الرجال والنساء والأطفال يتفرجون ويتحدثون . فهم من الحديث أن هناك حملات تقوم بها الشرطـة للقبض على الموجـودين دون اقامة شرعيـة وترحيلهم الى بلادهم . كـان قد سمع كثيرا عن الذين يسافرون للعمرة والحج والزيارة كوسيلة فقط للبقاء «حيث صار الحصول على عقـد عمل عملية صـعبة لا يفوز بها الا المحظوظون وهو منهم» . لماذا لم ير فى المطار غير ذلك . ربما صرفه الذهـول الذى رآه مخيما على وجـوه المحبوسين فى القـاعة عن أن يرى أو يسـمع

شيئا آخر . لكنها القاهرة اللعينة بلا شـك هى التى أصابته بهذا ، فهو يستطيع أن يقف فى ميدان العتبة طيلة النهار ولا يصاب بالجنون . قوة مجهولة فى نفسه أقامت حوله خط دفاع من نوع غريب ، فاذا توسط الزحام والضجيج ابتعد . صار خيطا رفيعا معلقا فى الهواء . ليست هذه علامات موت . وهنا حيث لا صخب مثل القاهرة ستعود لنفسه القدرة على التمييز . وطلب من السائق أن يدير تكييف التاكسى .

ـ افتح النافذة .

فتحها فدخلت قذفة لهب ، وابتلع الهواء الساخن وعطس !

ـ سوق البطحاء بعيد ؟

ـ ها .. مستعجل يامصرى ؟

لم يرد . تابع الحـركة السريعة للسـيارات فى الشارع الواسع . أغلقت الاشارة فحاصرته السيارات من كل جهة فى زحام شديد . ماكاد يخرج الأجندة التى بها عنوان صديقه الذى أرسل اليه عقـد العمل حتى فتحت الاشارة . اندفعت السيارات فى أرتال طـويلة

مختلفة السرعة • لاحظ أن الشارع يستوعبها جميعا فى راحة • قرأ العنوان •

ـ ها • هذا ليس فى البطحاء !•

ـ نعم •

ـ ليس فى البطحاء • هذا بالناصرية !

ارتبك بينما فتح السائق مسجل السيارة •• «تشيك شاك شوك • تشيك شاك شوك» •

ضاق صدر اسماعيل بالغيظ • صديقه لايمكن أن يخدعه • شهق ثم زفر بهدوء وتحكم فطالت الزفرة •

ـ أرجوك • العنوان بالبطحاء •

رفع السائق صوت المسجل فملأ العربة فجأة كأنما انطلق من عشرات السماعات فى جوانبها ، ومن تحت المقاعد • لكنه عاد وخفضه •

ـ هل تعرف الرياض مثلى • ياأخى آنا نزلت القاهرة مرة فقالوا لى ان فندق شيراتون بالاسكندرية وماتكلمت ، دفعت مائتى ريال للسائق وماتكلمت ، وآنا لاأطلب منك مزيدا ، هل أغشك ؟ هذا العنوان بالناصرية •

هل يمكن أن يكون صديقه ، الذى أمضى الآن سبع سنوات بالرياض ، قد وقع فى خطأ ما ؟ يعرف جيدا دقة صديقه · ماذا يفعل لهذا السائق ؟

ـ اسمع · أنا لاأعرف البطحاء ولا النـاصرية · لاأعرف الا صديقى · أوصلنى الى سوق البطحاء ، وأنا سأقوم بالباقى ·

ـ هـا ···

وتوقفت السيارة · نظر اليه السائق مبتسما فلم تلمع أسنانه ، كانت صفراء خربة · لكن عينيه كانتا بارقتين واسعتين ·

ـ هنا عنوانك ·

قال وهو يشير الى شارع جانبى ·

ـ تدخل فى هذا الشارع وتسأل ·

وفتح يده الممدودة ·

ـ عشرة ريال ·

ـ هنا البطحاء ؟·

تساءل اسماعيل فى قلق · أوقف السائق المسجل · قال :

ـ هذا شريط مصرى ٠

توتر اسماعيل ٠

ـ أسألك ٠ هنا البطحاء ؟٠

تجهم السائق فجأة ، واندفع يطلق الكلمات :

ـ لماذا تعاند يامصرى ؟ تقول البطحاء والعنوان فى الناصرية ، انزل الله يرضى عليك ، اركب سيارة أخرى اذا كنت أكذب ٠

دفع اسماعيل الأجرة ونزل ٠ رأى السيارة تنطلق فى الشارع الواسع الذى خلا من السيارات فجأة ٠ أحس أن الشمس سقطت فوق رأسه ٠ كانت المبانى العالية ممتدة على جانبى الشارع الذى بدا بلا نهاية ، ولم يكن لها ظلال ٠ والسيارات الواقفة ممتدة مع امتداد المبانى ٠ بدت المبانى خالية ومصمتة فى عينى اسماعيل ٠ السيارات راضخة ذليلة ٠ آفرغت شمس الظهيرة كل شىء حوله من الحياة ٠

(٢)

قال لنفسه قد يكون السائق صادقا ٠ دفعته الشمس الى الشارع الجانبى ، لعل وضع المبانى فيه يختلف فيجد

ظلا أو أحدا يسأله · وجـد منازل واطئـة مبعثرة · سيارات متناثرة وشوارع قصـيرة · مشى كثيرا وهـو لايدرى · الشمس التى بدا أنها استكنت فى رأسه كانت تلهب قدميه بالسياط فكان يقفز · التفت فلم يعرف كيف يعود الى الشارع الواسـع · لمح هامشا غريبا من الظل جوار أحد البيوت · لم يشعر الا وقد جلس فوق حقيبته الجلدية الصـغيرة · جعله هامش الظل الضيق يلتصق بظهره الى الجدار الساخن للبيت · كانت الحقيبة المنتفخة بالملابس القليلة طرية تحته حقا لكنها كانت أيضا ساخنة · قبل أن يفكر فيما يجب عليه أن يفعله برز له رجل يحمل «صرة» كبيرة سوداء · بدا وكأنما انشقت عنه الأرض · ألقى على اسماعيل السلام وألقى «صرته» وسقط فوقها مرهقا · تعجب اسماعيل كيف يرتدى الرجل سترة سوداء من الصوف تحتها صديرى أسود من الصوف · استند الرجل بظهره الى الجـدار ، لكن «الصرة» الكبيرة أتاحت له الجلوس فى وضع أكثر راحة اذ مد ساقيه لايبالى بتعرضهما للحرارة المركزة · كان يرتدى حذاء أسود ثقيلا ضخما · وبينما أخـرج سجائره وأشعل احداها وهو يلهث لاحظ اسماعيل أن فى وجهه غضـونا وعلى عينيه تعب ، وأن ملابسه فى الحقيقة قديمة جمعها الرجل كيفما اتفق ·

ـ مصرى ؟٠

قال الرجل فابتسم اسماعيل ٠

ـ تنتظر أحدا ؟٠

أشار اسماعيل الى المنازل المغلقة ٠

ـ كما ترى ٠

توحد الرجل مع سيجارته للحظات ثم قال :

ـ حضرت من المطار الى بيته فلم أجده ٠

ـ أتعرف أحدا هنا ؟

قال اسماعيل ذلك وهو يفكر أن هـذا الرجل قد يكون منقذه ٠

ـ صاحب العمل ٠ أعطـانى عنـوانه حين كان بالقاهرة ٠

ـ اذن عرفت تصل الى البيت ؟

ـ طبعا ٠ أعطيت السائق العنوان فأنزلنى أمـام الباب ٠

أشعل اسماعيل سيجارة بدوره ، وابتسم ٠ مـر وقت قليل تعرف فيـه كل منهما على الآخـر ٠ وجـد اسماعيل نفسه فى وضع أفضل ٠ فالرجـل جاء يعمل

«جناينى» فى مزرعة صغيرة براتب ألف ريال ، بينما جاء هـو ليعمل كاتبـا على الآلة الكاتبـة براتب ألف وخمسمائة ريال ، ويستطيع أن يجعلها ألفين بالعمل الاضافى كما أخبره صديقه . الرجل فى الخمسين من عمره أو يزيد ، وهو فى الثـلاثين . للرجـل ولدان صـغيران وخمس بنـات فى سن الزواج ، وليس لدى اسماعيل أعباء الا نفسه . يستطيع بعد عام أن يخطب «نجوى» ، وبعد عام أن يحجز شقة ، وبعد عام يتزوج، أو يتزوج ويحضر «نجوى» معه بعد العام الأول فقط . كثيرون يسـافرون وتلحق بهم زوجاتهم ، وزوجـات تسافرن ويلحق بهن أزواجهن أيضا ، كثيرون يتزوجون فى المطارات ، والطائرات تحمل العرائس دائما . وحين عرف الرجل منه قصته مع السائق قال انه فى كل بلد أخيار وأشرار ، ونهض وحمـل الصرة الضخمة على كتفه ، وانصرف بخطى واسعة .

كان اسماعيل قد قرر أن يصحب الرجل ليعرف من صاحب العمل كيف يصل الى العنوان الذى يحمله ، لكنه تابع الرجل بعينيه حتى رآه يختفى فى شـارع جانبى . كان الظل قد زحف كثيرا الى الأمام . أخرج

اسماعيل قطعة الكيك التى تبقت من وجبة الطائرة ، والتى احتفظ بها بطريقة ملفتة للنظر ٠

حين رأى رجلا يخرج من أحد البيوت ويفتح باب سيارته فكر أن ينهض ليسأله ٠ ولكنه رأى عددا من النساء المحجبات والأطفال يخرجون خلف الرجل ، ويركبون السيارة من كل جانب ، حتى بدا كأن لها عشرة أبواب ٠ تخاذل وابتلع آخر جزء من قطعة الكيك، لكنه فوجىء بالرجل المصرى يعود مضطربا ٠

ــ الصرة ؟٠

ــ صرة ٠ صرة أيه ؟!

ــ الصرة التى كانت معى والتى كنت أجلس عليها هنا جوارك ٠

وقف اسماعيل مندهشا وتلفت حوله ٠

ــ لقد حملتها على كتفك ومشيت ٠

ــ لم أجدها معى ٠ وصلت الى الباب وخرج صاحب العمل فلم أجدها معى ٠

ــ لابد أنك تركتها فى مكان آخر ــ وتلفت حائرا ــ ثم أنها ليست ابرة لتختفى ٠

دار الرجل حول نفسه ، ولطم خـديه بصـورة مفاجئة ومخيفة ·

ـ أنا لم أجلس فى مـكان آخـر · فى الصرة هدومى وآكلى ومحفظتى وجواز السفر ·

وبدا أن الرجل لن يتوقف عن الصراخ ، وتقلص وجهه بشكل غريب فحاول اسماعيل تهدئته ·

ـ طيب ·· طيب · تعال · سأبحث معك · صرة كهذه لاتختفى ·

وأخذ الرجل من ذراعه ومشيا ·

(٣)

ـ أنا لم أبتعد هكذا ·

قال الرجل ذلك منزعجا ، فقال اسماعيل :

ـ لكنا لم نجدها · لابد أنك ابتعدت أكثر ·

ـ لا ·

قال الرجل يائسا ، ووقف متحيرا يزوغ بصره فى السماء العالية اللامعـة والممتـدة فى ارتياح رحب ·

لايعرف أحد كيف فكر الرجل وهو يرى السماء صافية الزرقة بشكل رائع ، لكنه على كل حال ظنها بيضاء ٠

ـ هل تعرف بيت صاحب العمل ٠ لابد أنك وضعتها جـوار الجـدار قبل أن تدق الجـرس ٠ أليس للبيت جرس ؟

قال اسماعيل مغتبطا بهذه الفكرة التى قفزت الى رأسه ٠ لكنه للحظة فكر أن الرجل لم يخبره باسمه ٠

ـ لم أدق الجرس ٠ وصلت الى الباب فانفتح وحده، كان صاحب العمل فيما بدا خارجا ٠

ـ طيب ٠ طيب ٠ نعود الى بيت صاحب العمل ، سنجدها جواره ، صدقنى ٠ أظن أننا أتينا من هـذا الشارع ٠

عادا ٠ فى الحقيقة أنهما قصدا فى البداية الوصول الى بيت صاحب العمل ، لكن الاندفاع فى البحث جعلهما يدخلان فى كل شارع يقابلهما ٠ ارتفعت بهما الأرض أكثر من مرة وانخفضت ، وجـدا شـوارع مسفلتة ، شوارع ماتزال مفروشة بالحجارة البيضاء ، وشوارع من رمال ٠

ـ آلا تذكر أى علامة فى الشارع الذى به البيت ؟

ـ لا ٠

قال الرجل الذى بدا وقد سيطر عليه هلع فقال اسماعيل بايقاع رتيب :

ـ طيب ٠ شكل البيت ٠ أصفر ٠ أحمر ٠ عالى ٠ واطى ٠؟٠

ـ يشبه هذا ٠

أشار الرجل الى بيت مواجه رآه اسماعيل يشبه للذى يجاوره والذى يقابله ولأكثر من بيت ٠

فكر اسماعيل قليلا وقال :

ـ اعطنى العنـوان الذى معك ٠ نـدق أى باب ونسأل ٠

فتش الرجل جيوبه وأخـرج بطاناتها المتسخة ، فتدلت على الجـاكت والسروال ٠ بدا مثـل بليـاتشو وصرخ :

ـ نسيت الورقة مع السائق ٠

ولطم خديه من جديد ، فأمسك اسماعيل بيديه ،

ولأن الفضاء صار أقل اتساعا أدرك اسماعيل أن النهار يمضى ..

ــ أرجوك أن تهدأ . نستطيع أن نجد الصرة لو ساعدتنى .

هتف الرجل مشيرا بذراعه :

ــ هذا هو الشارع .

لكن اسماعيل الذى أصبح خائفا قال :

ــ كيف عرفته ؟.

ــ عى ناصيته بيت مهدوم .

رأى اسماعيل بيتا مهدوما بعيدا الى الأمام حقا ، لكنـــه صـــار متعبا . لابد أنهما مشـــيا كثيرا . أسرع والرجل خلفه . عند البيت المهدوم توقفا .

ــ انظر جيدا . تحقق من البيت . حاول أن تتذكر أى شىء .

وبينما وقف الرجــل الهلع يحملق فى الشارع ، التفت اسماعيل الى الناحية الأخرى ، فوجد بيتا مهدما على أول الشارع المقابل أيضا .

ــ بوابة البيت حديدية . لقد تذكرت .

هتف الرجل فلم يشأ اسماعيل أن يخبره بالشارع الثانى • قرر أن يقطع معه الشارعين صامتا • مشيا فى الشارع الاول ينظران • كانت البوابات كلها حديدية • وقف الرجل يصرخ من جديد •

ــ لابد أن نعود الى حيث كنا نجلس • ربما انتقلت أنت من مكانك • لقد تركتها جوارك ، لقد تركتها جوارك •

ــ هناك شارع ثان كان به بيت متهدم •

قال اسماعيل يائسا من الرجل ومما يحدث له اليوم • تبعه الرجل الذى صار يلهث • لم يكن فى الشارع الثانى بوابة من أى نوع • البيوت كلها محاطة بأسوار • فى كل سور فتحة بلا بوابة بينما يقع باب البيت نفسه بعيدا من الداخل حيث يفصل البيت عن السور مساحة من النجيل أو الزلط أو الرمل • فجأة اندفعت من أحد البيوت مجموعة من الماعز والأغنام وصارت تجرى بالطول والعرض وتتقافز وتمأمىء • اختلطت بهما واصطدمت بسيقانها وتعثر الرجل فى معزة صغيرة بيضاء وكاد يقع لولا أن سنده اسماعيل الذى كان يشم رائحة كثيفة لم يميز ما اذا كانت من الماعز أم من الرجل • ظهر رجل طويل رفيع كعامو

يمسك بيده خيزرانة · نظر اليهما وابتسم ، ثم راح يجرى خلف الماعز والأغنام التى جرت أمامه ، وقفزت الصغيرة منها فوق السيارات المركونة جوار الجدران ·

فكر اسماعيل أن يهرب · لكنــه وقد رآى الرجل يغمض عينيه ويشرع فى البكاء صــار الفضــاء أكثر ضيقا · كاد يسأل الرجل ماذا كان يعرف لون أو ماركة سيارة صاحب العمل التى لابد رآها أمام البيت ، لكنه تراجع · اختلاف أشـكال السيارات ، وكثرة ألوانهــا وأعدادها الهائلة تجعلها متشابهة ·

فى حالة من اليأس التام تملك اسماعيل يقين عجيب بأنهما سيجدان «الصرة» لو مشيا كيفما اتفق · تحرك اسماعيل جارا قدميه بينما يستند الرجل على ذراعه · عند نهاية أحد الشوارع ظهر الشارع الواسع الذى ترمح فيه السيارات · هبت نسمة هــواء طــرية لم تخل من سخونة · دخل الليل ، وأضيئت المصابيح على الجانبين، وتسابقت أنــوار الســيارات صــاعدة هابطــة فى الاتجاهين · كانت المبانى كما هى صامتة ، والسيارات كما هى راضخة · فكر اسماعيل أنه لو مشى على استقامة هذا الشــارع لابد سيجد محــلا به تليفون منه يتصل بصاحبه ليجد لهما مخرجا · لكنه على نحو مباغت أدرك

أنه وضع الأجندة التى بها عنوان صاحبه وتليفونه فى حقيبته الصغيرة ، وأنه حين قام يبحث مع الرجل عن الصرة تــرك حقيبته على الأرض · ابتعد عن الرجل متداعيا واستند الى الجدار القريب · لم يعد قادرا على أن يتذكر رقم تليفون صاحبه · تذكر جيدا أنه رأى هذا الرجل قادما معه من القاهرة على نفس الطائرة ·

فى الليل

هذه القاهرة ...

هاهو ميدان العتبة صمت أسود ، وهو بالنهار عين للجحيم . الأرض غسلها مطر خفيف فلمع شريطا الترام . فى السماء الليلة قمر . ويعرف بيقين أن بحذاء الأرصفة طينا . سيمشى وسط الشوارع .

لماذا يمشى ؟ ما الذى جعله يسلك هذا الطريق ؟

كان يسهر مع بعض أصدقائه فى مقهى على بابا

ـ نستمر حتى الصباح .

قال القادم لتوه من الخليج ، المتشوق لقضاء ليلة معهم . وافقوا . فى الثانية صباحا تثائبوا وافترقوا . كان ممكنا أن يجد «تاكسى» يقله من ميدان التحرير . قرر أن يمشى . من العتبة سيدخل فى شارع الجيش ، ويستمر حتى العباسية . من هناك يدور الى دير الملاك . مسافة طويلة حقا فى ليلة شتوية ، لكنه يرتدى حذاء جديدا من الشمواه ، وجاكت من الشمواه المبطن بالفرو

جديدا أيضا اشتراه من بور سعيد فى احدى رحلات العمل .

قال لأحد أصدقائه أنه أخطأ فى شراء هذا الجاكت، فهو ثقيل جدا لايناسب جو القاهرة ، وحقيقة الأمر أنه اختار هذا الصديق بالذات ليقول له ذلك لأنه من الاسكندرية ، وهو بهذا يوحى له أن يشتريه .

— تصور أنه رخيص جدا دفعت فيه اثنى عشر جنيها فقط .

لكن صديقه السكندرى ، الذى جاء الى القاهرة ليوم واحد فقط يختم فيه شهاداته من وزارة الخارجية استعدادا للسفر قال :

— الاسكندرية فى الشتاء دافئة ، لولا ذلك لاشتريته منك . وضحك . ثم ان الاسكندرية مدينة صغيرة وهذا جاكت ضخم جدا — ثم ارتفع ضحكه — أرتديه بعد منتصف الليل ، واذا سألك أحد لماذا تخرج فى هذا الوقت قل له انك اشتريت جاكت شمواه مبطن بالفرو ، ولابد من استعماله .

ضحك معه ولاحساسه بأنه كشف عن قصده بوضوح، قال :

ـ ثم انك مسافر الى بلاد حارة ٠

ـ أنا لن اسافر ٠ فقط ـأستعد ٠ كل الناس تفعل ذلك ٠ تجهز أوراقها استعدادا لفرصة لاتتكرر ٠

لابد اذن آن الجاكت اللعين هو الذى دفعه حقا للمشى الآن ٠ وقفز ثلاث قفزات واسعة وسط شريطى الترام، ثم عاد وقفز من جديد ٠ وجد فى طريقه علبة صغيرة من الكرتون فركلها بقوة فطارت مسافة غير قصيرة ، وانفصل عنها غطاؤها ، لكنه شعر بقدمه تؤلمه ٠ لقد تدحرج من العلبة حجر صغير ٠ للحظة فكر فى الشيطان الذى دبر هذا الفخ ٠ تذكر كيف كان وهو صغير يلقى بقراطيس التراب فى عرض الطريق ، ويجلس بعيدا مع أصحابه ، وفى يد كل منهم خيط رفيع متصل بالقرطاس ، فاذا ما انحنى أحد المارة ليتناول احداها جذبأحدهم الخيط ،فيتحرك القرطاس مفلتا منيد المار وينطلقون ضاحكين ٠ وتلفت حوله فلم يجد آحدا ، لكنه لمح أمام مبنى المطافى شرطيين يرتديان الزى الشتوى الأسود ، لماذا هما صغيران هكذا ، يبدو الواحد منهما أقصر من البندقية ؟

ومشى ٠ بعد قليل اكتشف آنه انما دخل فى شارع الأزهر ٠ كان يمكن اصلاح الخطأ ، لكنه فكر فى الوصول

الى ميدان الحسين • هناك سيجد عددا من الساهرين ، وربما يصل عنـد الفجر فيجد حـركة معقولة بالميدان تدفئه • لقد بدأ يشعر بالبرد ، ولم يعد الجاكت الشمواه يصمد أمام شتاء القاهرة •

رأى ، بعيدا ، شرطيا يتفقد أقفال المحلات على يمين الشارع • ذلك تقليد قديم ظنه انتهى • فكر أنه قـد يسمع الشرطى ينادى «مين هناك» بصوت عريض مثل صـوت «عبد الغنى النجدى» فى الأفـلام القـديمة ، وابتسم • لابد أن هذا الشرطى عجوز • الآن لم يعـد يسمع عن سرقة المحلات • كما أن السرقة فى المواصلات العامة قلت وربما انتهت • علق صديقه السكندرى على ذلك ذات مرة بقوله ان أكثر اللصوص وجدوا أبوابا واسعة للرزق السهل هذه الأيام • ربما كان على حق ، فمعظم الجـرائم المنشـورة فى الصحف قتل واغتصاب وانتحار • هذا الشرطى لايقرأ الصحف •

وكان قد اقترب منـه فوجـده ليس عجـوزا كما تصور • وأدهشه أنه صغير الحجم جدا على عكس مابدا من بعيد ، ولم يكن يحمل بندقية ولا مسدسا ولا عصا• وقف الشرطى أمامه مبتسما ، ولأن فى الشارع العريض اللامع مصـابيح رأى وجهه آصـفر وأسنانه صـفراء

عريضة · للحظة خاف منه ، لكن الشرطى قال : «مساء الخير» فرد التحيـة ومضى يفـكر فى اللهجة الفـلاحية للشرطى صغير الحجم ·

أدرك أن هذا ليس جديدا ، فمنذ وقت طويل وهو يرى كل يوم أعدادا كبيرة من رجال الشرطة فى هـذا الحجم على نواصى الشوارع فى العربات المترصدة ، وعلى أبواب المبانى وبين اشارات المرور · وكثيرا ماشـعر بالاشفاق ، خاصة على أولئك الذين ينظمون المرور ، اذ يبدون ضئيلى الجسم جدا أمام هذا الزحام المروع من العربات والناس · وأكثر من مرة أمره أحـدهم بأدب ويأس أن يعبر الشارع من فوق الكوبرى · وسمع صوتا يقول «تفضل» فنظر ليجد شابا يقف فى فم زقاق ضيق مرتكنا على جـدار · قال «شـكرا» بسرعة ، وأفسح لساقيه الخطى · لم يفارقه منظر الشاب بعينيه اللامعتين وشعره المنكوش ووجهه الطويل الجامد وسترته السوداء الجلدية · لكنه أحس بحركة خلفه فتلفت ليرى «تاكسى» يأتى على مهل وسط الشـارع · تاكسى قديم عـريض منخفض يمشى وئيدا مثل دبابة · فكر أن يشير اليه ، لكن التاكسى ماكاد يقترب حتى ابتعد مسرعا فجأة ، وسمع من داخله ضحكة ، ثم «شخرة» اختلطت مع وقـع

أقدام كلبين اندفعا من زقاق جانبى أمامه ، ففزع وقفز الى الوراء ٠ كانا ملتحمين من الخلف ، فلم يستطع أن يميز ما اذا كانا يتحركان بالعرض أم بالطول ، ثم أدرك أنهما يدوران فى شكل حلزونى ٠ فى منتصف الشارع توقفا للحظة وانفصلا فركض كل منهما الى ناحية ، ثم عادا يركضان أسرع فى اتجاه بعضهما ، واشتبكا فى معركة علا فيها نباحهما معا ٠ اذ أنه ميز صوتين مختلفين ، لكن زعقة عالية ملأت الفضاء ٠ وجد نفسه فى مفترق طرق ٠ هنا يتقاطع شارع بورسعيد مع شارع الأزهر ٠ اختفى الكلبان وهو لايدرى ٠ ماذا يحدث هذه الليلة ٠ كانت الزعقة قوية عميقة عريضة كأنها قادمة من بئر ٠ سمعها مرة ثانية أعمق من الأولى ، ولم ير أحدا حوله ٠ انها لصوت آدمى ما فى ذلك شك ٠ لايعرف لماذا تذكر فيلم «غزاة الشمال» هل كان «كيرك دوجلاس» أم امرأة عجوز هى التى تنادى «أودين» اله الفايكنج وتقول «ارسل رياحا ورعودا» كان المشهد قويا حقا ، لولا أنه ينسى تفاصيله ٠ لقد شاهد الفيلم منذ عشرين سنة ٠ كان هناك حزن غامر وغضب عات ودموع والبحر يعصف والموج يهدر وغرقى وسفن تحترق ، وكان الكلام واضحا جدا باللغة الانجليزية ،

وكان سعيدا بنفسه وهو يعرف دون أن يتابع الترجمة أن معنى «سند ويند» أرسل الرياح ، لكن رجلا بجواره على الدكة فى سينما الدرجة الثالثة أخرج الجزرة الصفراء الضخمة من فمه وزعق قائلا بهمجية «سند هند .. هاهاها ..» .. وسمع الزعقة الوحشية للمرة الثالثة . من أى ركن فى الشوارع والأزقة الخالية يأتى هذا الألم ؟ ولمح شيئا أسود يتحرك فوق الرصيف جوار جدار جامع عمر لطفى القصير الذى يتوسط الشارع . لم يشأ الاقتراب ولاحظ أنه عبر التقاطع بسرعة .وكان يريد حقا الوصول الى ميدان الحسين . ولما سمع «كركرة» عالية خلفه تلفت ليرى تراما مضيئا يقطع شارع بورسعيد على مهل . فكر أنه ترام العمال . لابد أن الوقت قد تقدم كثيرا ، وأن الصباح يوشك على الظهور . لكنه لم يسمع بعد آذان الفجر . ميدان الحسين قريب ولو حدث لسمعه . لم يشأ أن يشغل نفسه وأسرع . ولما سمع خشخشة فى الفضاء ترقب مابعدها فكان الصوت الجميل للشيخ نصر الدين طوبار يوشح . تنفس مرتاحا . بعد قليل أذن يؤذن للفجر . شىء طيب أن يشرب الآن شايا باللبن فى احدى مقاهى الحسين الساهرة ، ويتفرج على الناس بجلاليبهم البيضاء ، وهم يهرولون نحو الجامع

المضىء ، وباعة الصحف الذين يتوزعون فى الميدان وحولهم أعداد قليلة من الناس فى هذا الجو القارس ، لكنه أدرك أن الصوت صادر من راديو فى محل صغير ساهر على يساره فى مواجهة مستشفى الحسين الجامعى . ٠٠ ها ٠٠ لقد عبر اذن ميدان الحسين وهو لايدرى ، وهاهو يصعد جبل الدراسة ٠

هل يتلفت ليتأكد ؟ يعرف المستشفى جيدا ٠ بل ان اللافتة الطويلة على بابه مضيئة ، وفى نافذتين متباعدتين عاليتين وجهان يطلان ، وعند أحد الأبواب توقف تاكسى يدور حول أبوابه المفتوحة ثلاثة رجال سرعان ماحملوا منه جسدا ملفوفا فى ملاءة بيضاء ٠ فليمض اذن فى طريقه صاعدا ٠ لكنه رآى آمامه ، وعند المفارق مباشرة ، صفا عريضا من الجنود يسد الطريق ٠ فكر فى العودة بينما قدماه مستمرتان فى المشى ٠ اقترب أكثر واكتشف أنهم أبعد مما رأى ، لم يعرف ما اذا كانوا طوالا حقا كما يبدون أم آن ارتفاع الأرض تحتهم هو الذى يعطيهم هذا الطول ٠ رآهم متكاتفين رفعوا فى آيديهم اليسرى دروعهم البيضاء اللامعة ، وفى أياديهم اليمنى عصيهم الخيزرانية السميكة وقد لامست أطرافها الأخرى الأرض بجوار أقدامهم ، بين

سيقانهم المفتوحة فى وقفة صفا ، وأمامها ، صناديق خشبية سوداء مفتوحة من أعلى وتظهر بهـا علب زرقاء اللون تلمع ، ويدرك أنها قنابل مسيلة للدموع · كانوا يرتدون بذات سوداء وأحزمة عريضة تبرق «توكاتها» الصفراء ، وفوق وجوههم أقنعة · فى الجو شىء أبيض أدرك آنه شابورة ، صنع مع هذه القتامة التى تسـد الطريق تناقضـا مبهرا ومثيرا للعين · دار حـولهم ، عبرهم دون اعتراض · تنفس اذ وجد نفسه من جديد وحيدا · لاحظ آنه ينفث بخار الماء من فمه ، فراقب الكمية الخارجة ، وجعل يشهق بعمق ، ثم يزفر ببطء ، ليرى مداها وكثافتها · هؤلاء الجنود آطول من غيرهم · وعلى يساره كانت الحدائق العالية سـوداء أشـجارها لاتبرق ولايسمع لها صوت اهتزاز ·

وواجه بعد قليل شارع صلاح سالم يترامى على الناحيتين خاليا ولامعا · خلف الشارع ، وأمامه هو ، كانت الأرض غائـرة ، منبسطة فى اتسـاع رهيب ، ممتلئة بالمبانى القصيرة المتكومة والمتباعدة فى طرق ترابية ضيقة · لابد آن هذه المبانى تظهر من الطائرة كأحجار صغيرة · ولمعت فى عينيه شواهد قبور بيضاء وكتابات سوداء منقوشة ، ووقف يتأمل · يقولون انه

هنا يعيش أحياء أيضا • لكنه لايرى الا موجات بخار الماء وقد صارت تسبح بالقرب من الأرض وتتسرب أمامه بين الأبنية الواطئة كأنها جداول سحرية فى الوقت الذى كانت تشف فيه فى الفضاء وتضمحل • أدرك أن النهار يقترب ، يوشك ، هى لحظة لو أمسك بها فارق الناس ، آه ، لايستطيع أن يمسك بها تلك اللحظة السرية التى ينفصل فيها النهار عن الليل ، ذلك حلم قديم راوده كثيرا ، وسهر له الليالى فى البلكونة ، وخلف النافذة ، لكنه أبدا لم يصل اليه ، أى مجنون هو ، فى كل مرة ينخدع وتملأ الحركة الشوارع التى يغمرها النور فجأة ، كأنه ماء منسكب •

صديقى الوحيد
فى المدينة

(١)

ـ هل حقا لايوجد بالمدينة غيرك ؟

قلت لكن صديقى لم يرد • تلفت يمينى فوجدت طريق الكورنيش يمتد طويلا ، وينحنى آخذا معه صف المبانى العالية ، فيحسبه الغريب قد دخل بها فى عتمة الليل • لكننى لازلت أعرف المكان جيدا ، فذلك يحدث حين أنظر الى اليسار أيضا •

كنا نقف على قمة قوس أفقى من الأرض يحتضنه البحر الذى يتهادى صوت أمواجه الرخيم الى أذنى بتوقيع ثابت • لم يكن هناك هدير ، ولا كان الماء غاضبا رغم برودة الجو ، انما هو البحر بدا لى بيقين مثل وحش غاف منذ العصور السحيقة يسمعنى تثاؤبه • قلت :

ـ علينا أن نفعل شيئا •

ضحكنا • جرينا فوق الحاجز الحجرى العريض للكورنيش وصرخنا • تماما كما كنا نفعل ونحن طلبة

حين نضيق بالكتب · قفزنا الى صخور الشاطىء · همس صديقى وهو يمسك بذراعى «هس» · قلت «ماذا ؟» قال «ألا تسمع شيئا ؟» · أرهفت أذنى · قلت :

هذه خشخشة أبو جلمبو الذى أفزعته أقدامنا ·

قال بصوت خفيض :

ـ لا · انما هى الأسماك تتسامر فى جحورها · ألا تعرف لغة الأسماك ؟

ووجدنا معنا عشرين جنيها ، طار أحدها فى الماء اذ كنا نعدها بأيادينا الأربعة · الحقيقة أن المبلغ كان معى وحدى ولم يكن مع صديقى غير جنيه واحد قررت تركه له ، والجنيه الذى فقدناه سقط من يدى أنا اذ فكرت للحظة كيف تكون لغة الأسماك ·

ركضا عبرنا الى الرصيف الذى هرولنا فوقه · لم يكن صديقى ينحنى أمام الهواء مثلى فهو قصير، وكنت أنا خائفا ، لا أدرى لماذا ، من أن تنهدم العمارات فوق رأسى · وبعد أن جلسنا فى ملهى هوليود نظرت فوجدت الراقصة مثيرة ، تمتلك جسدا جميلا فوقه وجه قبيح · لكن عينى انجذبتا الى عازف الكمان الجالس بعيدا خلفها عند نهاية الخشبة الدائرية الواسعة التى ترقص فوقها ·

رآيته متوحـدا فى تبتل عميق وهـو يعزف ، ثم فجأة أخرج منـديلا وتمخط فيه وبصـق · ثم وضـعه على كرسى خال جـواره · شغلت بالنظر الى عازفى الطبلة والطار · همست :

ـ توأمان ؟ ·

ـ لا · شبيهان فقط · هذه ظاهرة فى كل الملاهى الليلية ·

ابتسمت · أعرف جيدا أن صديقى مثلى لم يدخل ملهى من قبل ، لكنى وجدت من الجميل أن أستمع له وهو يفسر لى ما أسـال أولا أسـال عنـه ، ثـم أننى لم أكن بالاسكندرية طوال السنوات الخمس الماضية بينما لم يتركها هو ·

ـ وهكذا انتهى كل شىء ؟

تساءل وهو يتأملنى مليا · فكرت أنه قد يعتقد أنى لم أزره الا بعد أن نكبت · قلت :

ـ لايزال معى بعض المال · أستطيع على الأقل أن أجد شقه ·

وربما بسبب الصخب الشديد ، والمفاجىء للطلبة والطار سكتنا ، وتفحصت المكان · رأيت ديكورا فقيرا هو خليط من الورق الأحمر والأزرق والأصفر والأخضر

الفاتح ، ومصـــابيح ملونة صغيرة وكبيرة منتشرة على الجدران كيفما اتفق تشتعل وتنطفىء بلا اتساق ٠

ـ لكن كيف يفعل أب هذا ؟ ٠.

قلت ذلك متكلفا الابتسام :

ـ وآخ أيضا ٠

تحمس صديقى ربما بسبب ابتسامتى وقال :

ـ لكن أنت ٠ ألم تزر مصر مرة واحـدة طـوال الخمس سنوات ؟ ٠

ـ كانت مارى هى التى تأتى فى الاجازة ، وكانت تعود وتقول ان كل شىء على مايرام ٠

وبدا صديقى مغتاظا جدا وهو يشرب جرعة كبيرة من البراندى ، وبـلع ريقه أكثر من مرة ، وحشى فمه بالخس ، وقال بصعوبة :

ـ البراندى مغشوش ٠

(٢)

صارت الراقصة تهتز بعنف بالغ ، وصـار العزف كأصوات فرقعات تأتى متنافرة من كل ناحية ٠ وخزنى

صديقى فى كتفى ، فنظرت حيث أشار لأجد المصرى الجالس على المنضدة القريبة منا يقف . كان أنيقا يرتدى بدلة بنية تحتها كرافته بنية عريضة تحتهاقميص أخضر فاتح ، لكنى أحسست بنه متأنقا أكثر مما ينبغى . ترك المنضدة وتقدم نحو الراقصة فلمحت حذاءه ذا اللونين البنى والأبيض . صعد الى الخشبة غير العالية فتوقف العزف والرقص . أظهرت الأضواء الشديدة التى تركزت عليه وجهه شاحبا ، لكنه بدا أيضا مريح الملامح . ربما لأن الوجوه المتعبة دائما مريحة للنظر . كان يمسك بجنيهين مفرودين جاور بينهما ورفع ذراعه بهما .

ـ المعلم حمدى يحيى الحاضرين جميعا .

ثم أشار الى منضدة خلفنا :

ـ المعلم حمدى يحيى اليمن ورجال اليمن .

قال صديقى :

ـ أمعقول أنهما من اليمن ؟.

نظرت فوجدت شابين أسمرين يرتدى كل منهما بلوفر ثقيلا فوق السروال . قلت :

ـ يبدو لى أنهما من باكستان . لكن .

ولم يسمعنى صديقى الذى تابع حمدى والراقصة .

ــ المعلم حمــدى يرحب بالســعودية وجــدعان السعودية .

وأشار الى منضدة بعيدة يجلس اليها شابان يرتديان زيا عربيا . ابتسما ابتسامة قصــيرة ، ورفع أحــدهما ذراعــه ملوحا بهــا فى الهــواء . فهم حمــدى معنى الاشارة .

ــ طيب المعلم حمدى يحيى الكويت وجدعان ..

لكن الشاب الذى رفع ذراعه وقف وقال :

ــ لاداعى لذكر اسم البلد . كلنا اخوة ..

كانت الراقصة الواقفة بلا حركة تمط شفتيها . وتحرك قدمها اليمنى فى قلق .. لكن حمدى كان يشير الى منضدة أخرى يجلس عليها عجوز غربى الملامح مع شاب مصرى وسيم ويقول انه «يحيى أمريكا وحبايب أمريكا» ، فاقترب الشاب الوسيم برأسه من العجوز ، وبدا يترجم له فابتسم هذا ، وهز حاجبيه ، وفوجئت بحمدى يقول مخاطبا العجوز :

ــ سوف أعطيك خطابا الى مستر نيكسون ، أعــرف أنه ترك الحــكم ، لكن ســأكتب عليــه البيت الأبيض سابقا .

انطلقت مع صديقى فى الضحك ، واذا بحمدى يتخاذل ويتساءل :

ــ مش أمريكا برضه ؟٠

صاح الشاب الوسيم :

ــ انجلترا ٠

ولاحظت أن عازف الكمان قد أشعل سيجارة ٠ وأن الراقصة لم تعد تهز قدمها ٠ بينما ركز كل من عازفى الطبلة والطار نظره الى سقف الملهى . ونظر الينا المعلم حمدى مبتسما ٠ ثم رفع ذراعيه وهو ينظر الى المنضدة الباقية والمزدحمة على يسار الخشبة ، وقال بتمهل :

ــ المعلم حمدى يحيى صاحبة أجمل ملهى فى عروس البحر المتوسط ٠

وبدا سعيدا جدا ٠ وعرفنا أن المرأة البدينة هى صاحبة الملهى ٠ قال صديقى :

ــ يمكن أن لاتكون هى أيضا صاحبة الملهى ٠

ضحكنا ونظرت للجالسين حولها ، فوجدتهم خمسة من المصريين متفاوتى الأعمار ، معهم كهل يبدو من

ملامحه أنه من شرق آسيا ، وتأكد ذلك لى حين قال حمدى انه يحيى أهل اسكندرية وضيفهم ابن قارة آسيا المحترم، ولم يعترض أحد ٠

ناول حمدى أخيرا الجنيهين للراقصة ، وطلب أن يسمع موسيقى «بين شطين ومية» ٠

ــ شفت ؟

قال صديقى ولم أعرف ماذا يقصد اذ انشغلت بالنظر الى الشاب المتحمس ، الذى وقف خلف المنضدة المزدحمة بزجاجات الويسكى والمزة ، والتى تضم ابن قارة آسيا ومضيفيه ، لقد رفع الشاب المتحمس يديه بعدة ورقات نقدية من فئة العشر جنيهات ، فهرولت الراقصة نحوه ٠ ألقى الشاب التحية على الجالسين جميعا ٠ فقال صديقى :

ــ أيضا يقول اليمن والسعودية وأمريكا ٠

غير أن الشاب اختص مستر «شان» القادم من هينج كونج ــ هكذا نطقها ــ لتوريد البطاطين الى المنطقة الحرة ببورسعيد بأطيب السلامات ، ثم طلب أن يسمع موسيقى «أمل حياتى» ٠

ــ أنظر الى حمدى ٠

قال ذلك صديقى • فوجدت حمدى الذى عاد الى منضدته قد تراجع بالكرسى الى الخلف وأزاح كوب البيرة الى الأمام ، وأشعل سيجارة • قلت :

ـ كان يمكنهم أن يعزفوا له «بين شطين ومية» •

قال صديقى :

ـ بالطبع كان يمكنهم • أهلا •

كان يرحب بالواقف خلفى • التفت فوجدت أحد الشابين الغريبين يقول باللغة الانجليزية «مساء الخير» فدعاه صديقى للجلوس فجلس •

ـ باكستانى ؟•

ـ نعم •

ـ صديقى عرفك • لقد عمل خمس سنوات فى السعودية • انه محاسب •

وقال الباكستانى بأدب جم عرفته عنهم خلال تعاملى معهم فى الدمام •

ـ أهلا • أنا أعمل فى جدة •

ثم قال ان الراقصة والمغنى الذى سبقها ـ والذى لم نره لدخولنا بعد الافتتاح ـ قد أشارا اليهما هو

وصديقه كثيرا ، وأنه خائف ، لايعرف هل من الضرورى أن يدفعا نقودا أم لا ؟

ـ ليس ضروريا ٠

قال صديقى ٠ وشرح معنى النقوط ٠ لكن الباكستانى فاجأنى وقال :

ـ أعرف ٠

نظرت الى صديقى فوجدته ينظر الى ٠

ـ أنا فى الحقيقة أردت أن أجلس معكما ٠ فهذا الجالس معى ليس صديقى ٠ انه أصغر منى فى السن ، لكنه رئيسى فى العمل ٠

ابتسم صديقى وقال :

ـ آه ٠ تزوران مصر اذن ٠

ـ سحب الباكستانى سيجارة من علبتى الموضوعة فوق المنضدة ، ثم أعادها ، وقال :

ـ فى الحقيقة أنا لاأدخن ٠ نحن لسنا فى زيارة لمصر لكن ٠٠ رئيسى هذا غبى جدا ٠ أغبى رجل فى العالم ٠ لقد جاء يقضى أجازته السنوية فى مصر ،

وفرض على أن أصحبه . كنت أود السفر الى «لاهور» حيث سأخطب وأتزوج .

نظرت الى صديقى ، فوجدته يقضم عودا من الخس . قلت :

ـ لماذا لم ترفض ؟.

أمسك الباكستانى بالسيجارة مرة أخرى . ثم أعادها ، وقال :

ـ ها . انه شخص شرير جدا . يستطيع أن ينهى عملى فى السعودية .

ارتبكت ولم أعرف ماذا أقول . كانت هناك ضجة كبيرة يثيرها المغنى النوبى الذى صعد الى الخشبة منذ فترة . بدا صديقى منشغلا بابتلاع جرعة من البراندى . لكن الباكستانى ابتسم وهو يقول :

ـ رئيسى هذا متزوج من امرأة جميلة جدا ، لكنه يتركها كل ليلة وحيدة فى الفندق ، ويخرج ليسهر ، ويصحبنى معه .

ابتسم صديقى ونظر ناحية الباكستانى الآخر ثم همس :

ـ لماذا تريد الزواج اذن ؟ أمامك فرصة نادرة ٠

ضحك الباكستانى ٠٠ غير أن الآخر هتف (راجا) فانتفض ، ونهض متجها اليه ٠

صار المغنى النوبى يزعق بطـريقة مرعبة ، ولمع العرق على وجهه الأسود ، وبدا لى يغنى لآخرين وراء البحر المترامى فى الخارج ، وقال صديقى :

ـ ماذا تعنى راجا ؟٠

قلت :

ـ اسمه ٠

صمت لحظة وقال :

ـ لكن هل تظن أن مارى كانت تعرف بما يفعله أبوها وأخوها ؟

قلت :

ـ أنا لا أصدق أنه لايوجد بالمدينة غيرك ؟٠

ولا أعرف ماذا دفعنى لهذا القول٠ هل لأن الراقصة الثانية التى ظهرت تشبه «مارى» حين رأيتها أول مرة منذ سبع سنوات ٠ كانت جميلة بحق ٠ صـغيرة الجسم كأنها عصفور وتحمل وجها آخاذا ٠ غير أن صديقى الذى فكر قليلا قال :

– فى الحقيقة انقطعت صلتى بالكثيرين بعد أن تزوجت ، بل ربما بجميع الناس .

ثم قال بعد لحظة :

– أنت رأيت وفاء . طيبة ، أليس كذلك ؟ انها سكرتيرة مدرسة ابتدائية أتبادل معها العمل تعمل هى صباحا نصف العام الأول ، وأعمل أنا مساء فى المدرسة الاعدادية المجاورة . فى نصف العام الثانى تعمل مساء ، وأعمل صباحا . هذا ضرورى لرعاية (هانى) و (هند) .

ابتسمت وأنا أتغلب على جرعة كبيرة من البراندى. لماذا نجبر أنفسنا على شراب مغشوش . فكرت . لكن لسبب لاأفهمه شاعت فى عروقى بهجة ، وكأنما قررت الاندماج دون أن أدرى ، أحسست بأن الخمر جيدة ، بل وتصعد الى رأسى متسللة بحالة من الصفاء المنعش . هل لأن الراقصة ركزت عينيها على ؟ أشارت الى أن أنزل يدى اليمنى التى أسند عليها خدى فأنزلتها، وابتسمت، لكنى أسندت دون وعى خدى الآخر على يدى اليسرى .

ضحكت الراقصة الجميلة وتراجعت . وضعت يديها بين فخذيها وانحنت قليلا الى الأمام ، ثم دق الطبال بيديه فى حركات عصبية غريبة .

ـ المعلم حمدى طلب براندى ، ولم يشرب البيرة ، ولا أكل الخس ٠

قال صديقى فأعادنى من متابعة الراقصة ٠ رأيت المعلم حمدى يمد يدا مرتعشة الى جيبه ٠ بدا لى أنها ليست يده ٠ تخيلت أن أحدا يسرقه ، فهو يركز النظر على الراقصة ٠ وخرجت يده تحمل جنيها مفرودا أعاده بسرعة وهو يمط شفتيه ، وينظر ناحية المنضدة المزدحمة حول «مستر شان» ٠ لقد وقف الشاب المتحمس ، لكنه عاد وجلس دون أن يفعل شيئا ٠ غير أن حمدى عاد وأدخل يده فى جيبه ، فخرجت تمسك بخمسة جنيهات ٠ فكرت أنه قد رتب مجموعة من الأوراق المالية بطريقة تجعل يده تعرف مايريد ٠ ورأيته يشرب جرعة كانت الأولى من كوب البيرة ، ويقف يرفع يده مشيرا الى الفرقة الموسيقية بالتوقف ليتكلم ، لكن ظهر ناحية الباب صعيدى طويل ضخم يرتدى بالطو أسود ضخم وعمة بيضاء لامعة ، وخلفه صعيدى آخر ضئيل الحجم ، يرتدى جلبابا ممزقا ، ويحمل (صرة) بيضاء برزت من ثقوبها أطراف ثياب قديمة ٠ كان الصعيدى الضخم يتقدم رافعا ذراعيه وفى كل من يديه ورقات نقدية حمراء ٠ ثم هز الملهى صوت صفعة قوية ٠ نظرت ونظر الجميع ،

فرأينا الشاب العربى الذى كان اعترض على ذكر أسماء البلاد واقفا ينهال على الجالس معه بالضرب .

(٣)

قال صديقى :

ـ الباكستانى يحييك .

التفت فوجدت الذى كـان يجلس معنـا ينصرف واضعا يده على بطنه ، وأخرى على فمه « ويمشى منحنيا متألما تاركا رئيسه . لم أبد حركة أو تعليقا من أى نوع كنت أفكر كيف ظهر ثلاثة شبان أقوياء بسرعة حملوا الشاب العربى وأرادوا القاءه فى الخارج لولا تدخـل صاحبة الملهى التى جعلته يجلس معها بعيدا عن زميله . وكان الصعيدى الذى أصبح فوق الخشبة ، يرقص حول الراقصة رافعا كرسيا بيد واحدة الى أعلى مدى تصل اليه ذراعه القوية ، بينمـا جعل الآخر « الممزق الثيـاب » يتدحرج على الخشبة حولهما ، ويقفز قفزات بهلوانية ، ويصفق « بعد أن ألقى الصرة ناحيـة عازف الكمـان الذى وضع فوقها قدميه» لكن المعلم حمدى وقف أمامنا حاملا كوبا به بعض البراندى فى يد ، وفى الأخرى علبة سجائر مارلبورو ، وولاعة مذهبـة .

ـ رأيت حضرتك ؟

قالها لصديقى ثم لى وجلس دون أن أفهم ماذا يقصد بالضبط . قدم لكل منا سيجارة . نظرت فوجدت الصعيدى قد وضع الكرسى الى جانب عازف الكمان الذى أصبح جواره كرسيان الآن . كان الصعيدى وهو يدور حول الراقصة يضع أوراقا مالية فى اى مكان تحت ثيابها .

ـ ليلى تكرهنى منذ زيارة نيكسون .

انتبهت الى ما يقوله المعلم حمدى ، ها هو يذكر نيكسون مرة ثانية . بادلت صديقى النظر

ـ انظـــر .

هتف صديقى فــرأيت الراقصة قد صعــدت فوق المنضدة المزدحمة ، ومستر شان صار يمسح بيديه فخذيها ، بينما يضحك الشــاب العربى ، ويصفق الآخــرون مع الايقاع . كان الصعيدى مايزال واقفا على الخشبة ، وان جعل ينظر باستهانة الى المشهد ، ثم أخرج من تحت البالطو رزمة من الأوراق المالية فئــة العشرين جنيها قســمها نصفين ، أمسك بأحدهما ، وناول الثانى لتابعه .

ـ حين أتى نيكسون الى مصر أرسلو فى طلبى .

قال المعلم حمدى وهو يربت على يدينا لنسمعه . كتمت الضحك لكن صديقى انطلق يضحك فتابعه المعلم

حمدى ، وجعل يدعك عينيه براحتيه ، لأنهما دمعتا
ثم قال :

ــ تصور حضرتك ٠ منذ ثلاثين عاما كان عمرى عشرين سنة ٠ كنت أحسن «مبيض» فى الاسكندرية ٠ وقتها كنت أقوم بدهان قصر رأس التين بأمر من الملك فاروق شخصيا ٠ الثـورة قامت ، والدهان لم ينته ٠ طردونا أنا والملك ٠ طبعا سافر كما تعلم أنت وهو ٠ من يومها ، والقصر لم يكتمل دهانه ٠ حين أتى نيكسون عجز (البوهيجية) جميعا عن اكمال العمل ٠ أجمعوا على أنه لايكمل الشغل الا من بدأه ٠ يعنى أنا ٠ أرسلوا لى فدهنت القصر عـلى أحسن مايـرام ٠ نيكســون تعب جدا معى ، لأنه كان كلما نام فى غرفة آخـرجته منها لأقوم بدهانها ــ ثم أغـرق فى ضـحك هادىء ــ على فكرة ٠ لماذا لم ينم فى أول حجرة دهنتها حتى لاأزعجه بالانتقال من غرفة الى أخرى ؟ لماذالم يختر غرفة مدهونة من قبل ؟ عموما كنت سأخبره بذلك ، لكنى أحببت أن ألاعبــه ٠ جميل أن يـلاعب «بوهيجى» مثـلى «رئيس جمهورية» ٠ أليس كذلك ؟٠ المهم انتهى الدهان ونحن صديقان ٠ عزمته على ســهرة ٠ أردت أن أقدم خـدمة للست ليلى صاحبة الملهى ٠٠ نويت أن أحضره هنا لأنه

اعترف لى بعشــقه للرقص الشرقى ــ وعــاد يضــحك بلا صوت ــ كان يحدثنى باللغة الانجليزية • الأمريكان يتحدثون الانجليزية أحسن من الانجليز • لكنه سافر فجأة • من يومها وهى غاضبة منى • طيب • هل كنت أستطيع احضاره بالقوة ؟ ألا يكفى حسن نيتى ؟• أردت لها شهرة واسعة فى كل الدنيا ، ألا أستحق الشكر ؟• طيب • نيكسون نفسه وعدنى بالدعوة الى أمريكا • قال انه بعد سفره سيرسل لى فيزة عمل من أجل دهان البيت الأبيض • تخيل أنت وهــو وضعى بفيزة عمــل فى أمريكا • أى واحد الآن يحصــل على فيزة عمل لدولة عربية يرجع نافخ ريشه ، وينسى انه باع عفش بيته من أجل الحصول على الفيزة • أنا كنت سأحصل عليها مجانا ولأمريكا • لكن حكاية ووترجيت وقعت على دماغى • تخيل أنت وهو الشهرة التى كانت ستأتينى بعد دهان البيت الأبيض •• الله •• الله •• ما هذا ؟

فزع حمــدى بحق ، وفزعنــا معــه حين رأينــا الصعيديين يجريان من أمامنا • كان الصعيدى الطويل يجرى بين المقاعد مطاردا تابعه ، وكلما طاله صفعه على قفاه ، والآخر يضحك ، ويجــرى مبعثرا نصف رزمة النقود فى كل مكان • لم يكن ممكنا ايقافنا عن الضحك

حتى انتهى الموقف بالصعيدى الطويل ، وقد أطبق على تابعه الذى استسلم بعد أن بعثر النقود كلها ، ورأيت حمدى يمسك فى يده صورة ويضعها على المنضدة بيننا، ويقول :

ـ أنظر . هذه صورة نيكسون شخصيا .

تبادلنا أنا وصديقى النظر الى الصورة لكن المعلم حمدى قلبها ، وجعل يقرأ لنا ماهو مكتوب خلفها .

ـ «توماى فريند حمدى، ذا بست بينتر ان إليكس» .. يعنى الى صديقى حمدى . أحسن مبيض فى اليكس . يعنى الاسكندرية ، «ويذ ماى بست ريجاردز» ، يعنى مع أحسن تحياتى .

وران علينا صمت . أزاح صديقى الصورة جانبا، واقترب بوجهه منى قائلا :

ـ أنت رأيت هند ، تشبهنى ، أليس كذلك ؟ وهانى يشبه أمه . كنت أتمنى العكس . تقول أمى ان أشكال الأطفال تتغير مع الوقت . أنا لا أصدق ..

فهــــرس

الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٧٦٠٧ / ١٩٩٧

I.S.B.N 977 - 01 - 5242 - 0

مكتبة الأسرة



بسعر رمزى جنيه وربع
بمناسبة
مهرجان القراءة للجميع ١٩٩٧

مطابع
الهيئة المصرية العامة للكتاب

■ إبراهيم عبدالمجيد

- روائى وقاص.
- من مواليد الإسكندرية.
- عمل فى مواقع ثقافية متعددة.

- له عدة روايات أهمها: «بيت الياسمين»، «الصياد واليمام»، «البلدة الأخرى»، «لا أحد ينام فى الإسكندرية»، بالإضافة إلى مجموعات قصصية منها: «فضاءات»، «إغلاق النوافذ».

- حصل على عدة جوائز عن أعماله الأدبية منها: جائزة نجيب محفوظ لأحسن رواية عام ١٩٩٦م من الجامعة الأمريكية. جائزة أحسن رواية صدرت فى مصر عام ١٩٩٦.

- ترجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية.

